فوزاً عظيماً

أحمد صدّيق

فوزًا عظيمًا

رواية تخيلية | أحمد صدّيق

الطبعة الثانية: 2020

جميع الحقوق محفوظة ©

دار الباقيات الصالحات للطباعة والنشر لبنان - بيروت- بئر العبد
البريد الإلكتروني: DarAlbaqyatAlsalihat@gmail.com

تصميم الغلاف: هيثم يوسف
تنفيذ المخطوطات: حسين مقيم، روح الهجير
مصور الغلاف: ميرزا بدر القلاف

الصف والإخراج الفنّي
مريم المدحوب

السلام على الحسين
وعلى علي ابن الحسين
وعلى أولاد الحسين
وعلى أصحاب الحسين

قصّةٌ حقيقيّة التزمتُ بتفاصيلها وأضفتُ جانبًا من

خيالاتي الخاصة من غير تأثير وتغيير في مجريات الحدث.

الإهداء

إلى مَن..
لم أؤدِّ حقّهُ عليّ،
لم أكُن أهلاً لخدمته،
لم أكُن كما يحبُّ أن أكون،
لم أنصرْهُ، لم أكُن معه، لم ألتقه بعد،
ولكني أنتظر لقاءه الذي لم ولن أستحقّه..

أُقدّم بينَ يديكَ هذه الأحاسيس التي لا أملكُ
غيرها، هي "عرائس فكر" عبدك المملوك..
وقبولكم يا آل طه لها مهرُ.

عبدكَ وابنُ عبدكَ وابن أمتكَ
أحمد صديق

حديثٌ يرفض السكون

نظرةٌ في الدنيا..

أم نظرةٌ في الآخرة..

لا يهمّني متى وأين وكيف؟

كل ما يهمني هو لقاك!

ولكنّي.. سأسأل..

متى وأين وكيف؟..

ففي مناجاتكَ لذّةٌ خاصة.

أعدك.. إن لم تشأ أن تراكَ عيني حين لقاك،
فأعدكَ بأنّي سأُغمضها، فقط دعني ألتقيك،
فأنتَ الذي عودتني على أن أطلبَ منكَ ما لا أستحق.

***

سأنتظر .. وأنتظر ..

ومالي لا أنتظر والإنتظار أفضل عبادة
ولعلَّ الذي أبطأتهُ عني هو خيرٌ لي!
هي مجرد صورة في مخيّلتي ولستُ أقوى على تحمّلها،
فكيفَ لو أصبحَت حقيقة ورأيتكَ أمامي!،
لا أعلمُ ماذا سأصنع كيفَ سأُحيّيك؟
يا سيّدي أنا على دراية بكل ما أوتيت من يقين
بأني لن أُؤدِّي حقَّ اللقاء، ولكنّي .. سألقاك،
وإن لم أكُن أهلاً لذلك، فأنتَ أهلٌ لذلك.

أنتَ جرحي..

وأسألكَ أن لا تَطيب!

لا تندمل، ابقَ مفتوحًا، انزِف.. أرجوك!

اجرحني أكثر، اقتلني إن شِئت.

فبحُزني عليك أعيش حتّى ولو مت!

دعني أرى نزفكَ لأموتَ معك يا سيّدي.

***

أنتَ الوحيد..

الذي أتحدّث وأقرأ وأكتب عنه، أناجيه، أزوره،

أندبه، أعزّيه، أبكيه، أخدمه، أحبّه... بلا توقّف!

وأعوذ بالله من يومٍ لا تكون أنتَ فيه،

وأعوذُ بالله من يومٍ لا أطلبُ فيه لقاك.

أُحبُّ تناقضي فيك..

سعادتي في حزني،

راحتي في تعبي،

أُنسي في وحشتي،

عزّي في غربتي.

***

أحبُّ..

عفوكَ عنّي، وتجاوزكَ عن خطيئتي،

وصفحكَ عن ظلمي، وستركَ على قبيحِ عملي،

وصبركَ على جهلي، وتوفيقي لحبك

وخدمتك وزيارتك.

***

أكرهُ نفسي عندما ..

تَدْعُونِي إلى الله عز وجل فَأُوَلِّي عَنْكَ حُبًّا في الدنيا،

وأُسيء إليك بجهلي فتُحسنُ إلي،

وأتطاولُ بهوى نفسي وبُعد آمالي فتصبرُ علي.

وأبتعدُ عنكَ بأعمالي وسوء حالي فتقرّبني وتُدنيني برحمتك،

وعندما أنسى فضلك عليَّ فلا تنسى حُبّي لك.

***

أبكي ..

ومالي لا أبكي.. أبكي لضعف نفسي

وقلّة حيائي، وكثرة شهواتي، وعظمة ذنوبي

أبكي لقبولك إيايَ كأني لا ذنبَ لي

فلم أرَ مولاً كريمًا أصبرَ على عبدٍ لئيمٍ منكَ علي.

هيهاتَ .. هيهات..

أتطردني بعدَ حُبّي؟ أتُخيّبني بعدَ ثقتي؟

أتُبعِدني بعدَ تودّدي إليك؟

أتعاقبني بعدَ حِرماني من رؤيتك؟

أتُخرسُني بعدَ صدقِ اعترافي بجنوني بك؟

***

حاشاكَ حاشاكَ..

أتطردُ مُحبًّا وأنت تكرم العدو؟

يا سيدي وحبيبي ومعتمدي ورجائي،

ما هكذا الظن بك!

أنتَ أكرمُ من أن تضيّع من أبكيته،

أو تُبعّدَ من يرجو قربك،

أو تُسلّمَ إلى الدّنيا من تبرّأ من أعدائك وتمنّى نُصرتك.

أُقسمُ صادقًا..

تبكيكَ عيني لا لأجلِ مثوبةٍ لكنما عيني لأجلكَ باكية وسأجزعُ عليكَ، فكل الجزع مكـروه ما خــلا الجزع عليـك، فـإن العبـد فيـه مأجـور!

***

لن أتركك..

سأبكيكَ وإن كنتُ عاصيًا.

أناجيكَ وإن بقيتُ متمرّدًا.

أُحبّك .. وإن كنتُ واهمًا!

***

سأبقى جالسًا..

على أعتابِ بابكَ مُحتطبًا ذنوبي على ظهري حتى تأخذ بيدي، لأغلب هوى نفسي، فأكون معك أنت!، لا أحدَ سواك.

***

أنتَ الذي..

فتحتَ لمحبّيكَ بابًا سمّيتَهُ الرحمة!

فسأبقى جالسًا أمامَه ولن أدخلهُ حتّى ولو كان مفتوحًا،

وسأطرقه .. وأطرقه .. باكيًا، لاطمًا، نادبًا، معزّيًا، مناديًا:

"ياحبيبي .. أتأذنُ لي بالدّخول؟".

١

غابت الشّمس، فهُدَّ ركني، وانقلب حالي، وتأوّهتُ تأوّهَ الفاقد، على الرغم من أني أقفُ في نفس المكان الذي أقف فيه كل يوم، أمامَ نافذتي، إلا أنّه بدا لي أنّ المكان قد تغيّر، المناظر تغيّرت، أو قد أكون أنا من تغيّرت؟، ربما كل شيء تغيّر.

نظرتُ إلى السماء نظرةَ المودّع المستسلم، تغيّر لوني مع احمرارِ لونها، إنها هي، الليلة التي أخافها ولكني أنتظرها، ليلةٌ ليست كباقي الليالي، أذَّن المؤذّن لصلاة المغرب فصاح:

- الله أكبر

فرفعتُ رأسي إلى السماء وقلتُ "يا كبيرًا لا يُقاس، ألهمني صبرًا يُعينني على هذه الليلة"، فوصل المؤذّن إلى:

- أشهدُ أن محمّدًا رسول الله

وجّهتُ وجهي إلى المدينة المنورة وقلتُ بقلبٍ مُكمدٍ: "حقَّ لي في هذه الليلة أن أقول كما قالت لكَ بضعتك: صُبَّت عليَّ مصائبٌ لو أنها، صُبَّت على الأيّامِ صرنَ لياليا"، وعندما صدحَ المؤذّن باسم أمير المؤمنين عليه السلام:

- أشهدُ أن عليًّا ولي الله

انكسرَتُ ووجّهتُ وجهي إلى النجف المُعلّى وناجيته وقلتُ:"يا أبا الغوث أغثني، يا علي .. أدركني..".

توجّهتُ إلى المغاسل لأتوضَّأ، رأيتُ الماء، ويا ليتني لم أره، جمدت جوارحي، حتّى رمشي رفضَ أن يرمش، تسارَعَت نبضاتُ قلبي، تراجفَت أناملي، وعجزتُ عن التعبير، تذكّرتُ أني عطشان .. ولكني أمسكتُ عن الماء في هذه الليلة، فكيف لي أن أجرأ على شربِ قطرةٍ واحدة!.

أخـذتُ غَرفـةً من المـاء بيـدي، وتوقّفَ عقلي عـن إدراكِ الوقـت، اسـتجمَعْتُ قُـواي، أسـبغتُ وضوئـي ومشـيتُ إلى غرفتـي بخطـواتي الثقيلـة، دخلتُهـا، فَهَوى ناظـري على قميصي الأسـود الـذي جَهَّزَتْـهُ لي أمـي فاغرورقَـتْ عينـاي!

كنـتُ أرى أُمّـي في كل دمعـةٍ أذرفهـا، فهـي أوّل مَـن أخبرتهـا عـن دمعتـي الأُولى عـلى صاحب المصيبـة الراتبـة، نعم لا زلـتُ أذكرهـا!، وكيـفَ يَنسـى مَـن خُلِـقَ للبُـكاء عليـه؟

أتذكّـر جيّدًا تلكَ اللحظة التي خرجتُ فيها من الحُسـينية عندمـا كُنـتُ دون العـاشرة، مهـرولاً في يـومِ الفاجعـة الكبرى، ومـا إن صرتُ بجانـب أُمـي قلـتُ لها وأنا أبتسـم: **"أُمـاه .. لقد بَكيـتُ مثلكم اليـوم!"**، وسـألتني بابتسـامةِ المكـروب المفجوع وبعـين الحزين الخاشـع: **"بكيـت بدمـوع؟"**، فأجبتهـا بافتخار: **"نعـم!"**، فضحكت ودموعهـا تتلألأ في عينيهـا، فعلمتُ أنّ في حُزني عليهِ سـعادةً في قلـبِ أُمي، فارتبطت دموعـي بوالدتي منذ نعومـة أظفـاري، فلا عـذَّبَ الله أُمّـي إنهـا فُجِعَت بقتـل الذبيح فأفجَعَتْنـي معها.

حملـتُ القميـص وكـم كان ثقيـلاً عـليَّ حملـه، وأمعنـتُ

النّظـرَ فيـه، لم يكُـن ممزّقًـا، لا دمـاء عليـه!، فبـدأ بكائـي.

ارتديـتُ سـوادي، لففـتُ وشـاحًا أسـودًا عـلى رقبتـي، ووقفـتُ عـلى سـجّادتي لأُصـلّي، وقَعَـتْ عينـاي عـلى التُربـة!، ولم أتمالـك نفـسي فهويـتُ عليهـا، أُقبّلهـا وأبكي، أُقلّـب خدّي عليهـا، وكـم كانَ وقـوفي صعبًـا!، ولكنّهـا الصـلاة ولا يصـحُّ تأخيرهـا، فوقفـتُ وكبّرت، وكانـت كأنها الصـلاةُ الأخيرة التي سـأصلّيها، ارتبـاطٌ عميـقٌ مـع الله عـز وجـل لا أشـعر بـه طول السنة.

بعدَ التسـليم، أخرجتُ سِـبحة ترابيّة غير التي أستخدمها دائـمًا، لا أخرجها إلا في هذه الليلة، لأُسـبّحَ بها تسـبيحة الزهراء عليهـا السـلام، شـممتها، فسـالت دموعـي، ومسـحتُ بها على وجهي.

مـا إن انتهيـت، هممـتُ بالخـروج مـن المنـزل، ولكنّـي تراجعـتُ، فقد نسـيتُ ما لا أنسـاه أبدًا، مددتُ يـدي على كتاب "مفاتيـح الجنـان" الـذي كانَ بجانـب سريـري، ولم أبحث عن الفهـرس فحتّـى رقـم الصفحـة كنـتُ أحفظـه، بل حتّـى مكان الورقـة في الكتـاب، فتحـتُ الصفحـة التـي أريدهـا، وكانـت

الصفحة رقم ٤٥٣ في نسختي.

قرأتُ العنوان **"زيارة عاشوراء"**، زيارةٌ ليست كباقي الزيارات، كيف لا وقد قرأتُ بأم عيني في صفحات الكتب عتابًا صريحًا من سيدي ومولاي صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه على شيعته حينما قال: **"لِمَ تتركون زيارة عاشوراء .. عاشوراء .. عاشوراء؟"** وتكراره الكلمة ثلاث مرّات جعل قراءتها كالفرض الواجب علي، تعوّدتُ عليها بل أدمنتُها!، فتعلّق قلبي بها شوقًا إلى ساكني تُرعتها وامتثالاً لصاحب الأمر، وأصبحَت الصديق والرفيق، و وسيلتي إلى الله لقضاء الحوائج المستعصية، ولم تخيّبني أبدًا!.

أَلِفْتُ هذه الزيارة، وكنت أشعرُ بأنها تبادلني نفس الشعور وقد أَلِفَتْني، فهي جزءٌ لا يتجزّأ من يومي، فوجّهتُ وجهي إلى تلكَ الجهة، جلستُ على رُكبتي، جلسةَ العبد الذليل بين يدي مولاه.

أطرقتُ برأسي قليلاً، وفتحتُ الكتابَ وجعلته بين عينَيْ، إلا أنّي لم أستطع البدء في قراءة الزيارة، حاولتُ أن أتلفّظ بالكلمة بالأولى: **"السَّـــ"**، ولكنّي عجزتُ عن إخراج

الحرف الأول بوضوح، فلجأتُ إلى القراءة همسًا لعلّني أستطيع أن أُكمل، وكم كان التنفّسُ صعبًا، عجزتُ عن الجمع بينَ التنفّس وهمس الكلمات، ولم أكمل حتّى السلام الأول.

لم يبقَ لي إلا أن أقرأ بعيني، دون أن أحرّك شفتيّ، فحتى شفتاي كانتا ترجفان ولم أستطع التحكّم بهما، فتابعتُ الكلمة الأولى بعيني: "السلام" ولكن الرؤية ضُبِّبَتْ، فعلمتُ أنّها عيني، رفعت رايةَ الحداد وأخرَجت موكبًا من الدموع لتؤدّي شعيرتها في هذه الليلة، وقد بلّلَ الموكب صفحةَ الكتاب، فتركتُ الكتاب وصحتُ: «ساعدَ الله قلبكِ يا فاطمة!».

وقفتُ على رجلي وأنا في حالةٍ يُرثى لها، وذهبت إلى الباب، أردتُ أن ألبسَ حذائي، ولكنّي تذكّرت ما لا أستطيع البوح به!، فرميتُه جانبًا، وخرجتُ من المنزل حافيًا كئيبًا.

كانَت السّماء غيرَ التي أعرفها، سوادها كانَ مختلفًا، كئيبًا، مُنزَعِجًا، ضاجًّا بطريقته الخاصّة، مُعلنًا حداده، وكانت الأحجار كأنّها في غير محلّها، شعرتُ أنّي أفهمُ شعورها، تريدُ أن تكونَ في بقعةٍ أخرى، مكانٍ آخر بعيد، لتبكي مع الباكين

في يـوم غد.

ركبـتُ سـيّارتي وقـرّرتُ الاسـتماع إلى زيـارة عاشـوراء بالصّـوتِ الـذي أحبّـه "محسـن فرهمنـد"، فهـذا هـو الحـلّ الوحيـد الذي بقيَ لي، وبدأتُ أسـتمعُ إلى الزيـارة طوال الطريق كأني أسـمعها للمـرّة الأولى، وكل سـلامٍ في الزيارة يشـغلُ قلبي وعقـلي وإدراكـي، فأغـوص في حالةٍ من الهيام لدرجة أني أنسـى الجُملـة التاليـة في الزيارة عـلى الرّغم من أني أحفظهـا، بل بعض الكلـمات تسـلب تفكـيري وأسـبحُ في خيـال العشـق فأصبحت كالأصـم الـذي لا يسـمعُ الجمـل التـي يقرؤهـا القـارئ، وهنـا أعنـي عندمـا وصـلَ القـارئ إلى كلمـة: "بـأبي أنـتَ وأمـي"، أخذتنـي هـذه الكلمـة إلى عـالم آخـر، بُعـدٍ جديـدٍ مـن الفداء.

انتهـت الزيـارة ولم أنتبـه لانتهائهـا منـذ مُـدّة، ولم ألحـظ أني وصلـتُ إلى الحُسـينية!، لا أذكـر كيـفَ كنـتُ أقودُ السـيارة، وكـم يحصـلُ هـذا كثـيرًا عندما أكـون شـاردَ الذّهـن، فأصلُ إلى وجهتـي دون أن أكـونَ بوعيـي في الطريـق.

٢

نزلتُ من السيارة، وبدأتُ أمشي بأقدامي الحافية، وبينما كنتُ أدوس على الحجارة والرّمل أحسستُ أني أسمعها تقول لي: "آجرك الله!"، ولا أعلمُ لماذا ولكنّي كنتُ أعظّم الأجر لكل شيء حولي، لكل ذي روحٍ وجماد، كلهم كانوا مختلفين في هذه الليلة.

وصلتُ إلى باب الحُسينية، رأيتُ أهلي وأصحابي وأبي في وسطهم، كانت وجوههم مختلفة، حاولتُ السّلام عليهم، ولكن بدا "الكلام" نشازًا مزعجًا أمامَ قُدسية الحُزن لهذه

الليلة، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أُعانقهم ثم نبكي، فوقوفي عند بابِ الحُسينية سلبَ منّي حتى كلمات تعظيم الأجر، بعد عناقي وبكائي معهم، وقفتُ على باب الحُسينية، أنظرُ إلى المنبر من بعيد، وهمستُ: "أتأذنُ لي بالدخول؟"، ودائمًا ما كنتُ أعتبرُ الدمعةَ إذنًا، فقلتُ بعدها بنبرةِ التسليم: "بسم الله وبالله، وعلى ملّة رسول الله"، وقدّمتُ رجلي اليُمنى ورفعتُ رأسي وأنا أسأل: "أينَ تجلسين؟".

دخلتُ وجلستُ في قلبِ المجلس حيث يجتمع الباكون والصارخون والجازعون عادةً، لم أكُن أريد أن أُحسبَ من الهادئين في هذه الليلة، ولم أسمع أحدًا يتحدّثُ إطلاقًا، أو ربّما كانوا يتحدّثون ولكنّي لم أكُن أسمع!، فحواسّي كلها كانت مشغولة، كلٌّ منها يؤدي شعيرته الخاصّة، ويعرض حدادهُ بطريقته، فنبضاتي كانت تلطم على صدري، وأذني تُنصتُ إلى تسبيح المهمومين بأنفاسهم، وعيني تهيل الدموع بلا توقّف، وأما لساني فاختارَ الصمت، وكأنّه يهيّئ نفسه لشعيرته التي لم يحِنْ وقتها.

وصل الخطيب، بخطواتٍ ملؤها الخشوع والهدوء والوقار رقى المنبر، ولكن شيئًا كان ناقصًا هذه المرّة، حاولتُ

أن أجمع شتاتَ عقلي لأعرف ما هو، واستوعبتُ أن الخطيب في هذه المرّة كان حاسرَ الرأس، بلا عمامة!، أزرارُ قميصه العُليا كانَت مفتوحة، كأنّه قد كرهَ العَيش، لا يُريد أن يخطب، وما إن شرع في تلكَ الكلمة التي قلبت المجلس رأسًا على عقب، حتى انقبض قلبي وهاجَت مشاعري.

- **صلى الله عليكَ يا أبا عبدالله**

قالها وبكى قلبي قبل أن تبكي عيني، وفارَ دمّي في جسمي، وبكى معي كل من في المجلس، فواحدٌ كانَ يصرخ بأعلى صوته، وآخر يلطم رأسه، وغيره يلطم وجهه، وبعضهم يندب وينادي، وضجَّ الضاجون وعجَّ العاجون، فأبكوا الخطيب!، وبدأ يلطم ويبكي معنا.

وكُنتُ أحفظ مقدّمة المجلس، أحفظ الطريقة التي يقرأ بها الخطيب وكل حرفٍ يقوله، وتسلسل الجُمل التي يقولها، وفي الليالي السابقة كنت أُردّد معه الأبيات وأسبقه في بعضها، ولكنّي في هذه الليلة أشعرُ أني نسيت كل شيء، أَنكسرُ انكسارًا خاصًّا مع كل جُملة فتُنسيني التي تليها، وأظنُّ أني لم أكُن وحدي هكذا، فحتّى الخطيب لم يكُن يتمالك نفسه

في هـذه الليلـة، ويسـتطرد بتعليقـاتٍ غريبـة، كأنّهـا ليسـت في محلهـا، ولكـن حيرته كانـت في محلّها هـذه الليلـة، كانَ يتمنّى أن لا يحـدث مـا سـيرويه، ولكنّه يعلـمُ أنـه حـدث!، كان يتمنّى أن يتراجـع الأعـداء عـمّا فعلـوه، ولكنّه يعلـم أنهم ارتكبـوا الفعل، فهـو المـاضي والمـاضي لا يتغـيّر، فـكان اضطرابـه يغـذّي ألمـي وحرقتـي، وأكمـلَ وياليتـه لم يُكمـل:

- **وعلى الأرواح التي حلّت بفنائك**

وهنـا أصبحـتُ كالأم الثكلى!،ربّـما لأني كنـتُ أريـدُ أن أواسي الأُم، ربـما لأني شـعرتُ بـألمِ الأُم، أبكـي وأبكـي وأبكـي "ولكـن بحـيرة شـديدة!، تحتـار مخيّلتـي في أي روحٍ تختـار مـن الأرواح التـي قدّمت أنفسـها فـداءً لصاحب الدمعة السـاكبة؟، عـلى أيّهـا أبكـي؟ الأصحـاب الذيـن دخلـوا إلى قلـب الميـدان وكأنهـم يبحثـون عـن "المـوت" ليُعانقـوه، فيَقتلـون كل مـن يحـول بينهـم وبينـه؟ الآل الذين كانـوا كالأقمار المنـيرة والنجوم الزاهـرة؟ الكبـار الذين شـدّوا حاجبهـم؟ الصغار الذيـن كانوا يركضـون هاربـين؟ الأطفـال الذين سـحقتهم حوافـر الخيول؟

عـلا صُراخـي، وقـع ناظـري عـلى رايـةٍ سـوداء مُعلَّقـة،

كُتِبَت عليها جملةٌ واحدة فقط: **"قال الإمام الصادق عليه السلام: وارحم تلك الصرخةَ التي كانت لنا"**، فشكرتُ الله عز وجل على هذا التوفيق أثناء الصراخ، وسألتُ نفسي: **"**هل فعلاً قد نلتُ دعاءً مباشرًا من الإمام الصادق عليه السلام بصراخي؟**"**، وقاطعني يقيني بصدقِ وعده فهو الصادق!، وحاشاه أن يقول ما لا يفعل، فارتفع صراخي وصرختُ: **"لبيكَ يا صادق الآل"**، ودعوتُ لمن وضعَ هذا الحديث الذي عرّفني ما يريده جعفر بن محمد صلوات الله عليه في مجلس جدّه.

وأكملَ الخطيبُ وقال كلمته الثالثة..

٣

فتحتُ عيني وإذا أنا جالسٌ على التراب!، في أرضٍ مبسوطة، إنها المرّة الأولى التي أكون فيها هنا!، إلا أني أعرف هذا المكان جيّدًا، وأشعر أني أنتمي إليه كأنه موطني، بل هو موطني، فلم أشعر بالوحشةِ ولا الغُربة أبدًا.

نهضتُ ولاحظت أن بيدي سيفًا!، يبدو أنهُ سيفي، نعم شعرتُ أنّه ينتمي إليّ، ولكنّي لم أكترث بالتساؤل حينها، التفتُّ باحثًا عن علاماتٍ تساعدني على استيعاب هذا المكان، فشاهدتُ مخيّمًا قريبًا حنَّ قلبي إليه، ولكنه مُحاصَر!،

وكانت هندسة الحصار تُشير إلي بدايته!، والمزعج هو أنّ آلافًا آخرين يحاصرون شيئًا آخر غير هذا المخيّم، إنه الماء!، كأنّهم لا يريدون لأحدهم أن يصلَ إليه.

كانت وجوه المُحاصِرين فرحة سعيدة بهذا الحِصار، بسبب توافر الخيل وكثرتها، وإحكام هذا الحصار يمنع وصول أي ناصر من الخارج، فاستضعفوا بهذا المحاصَرين.

التفتُّ إلى المُخيّمِ المُحاصَر، ونبضَ قلبي بقوّة، فهرولت بلا شعور، وكلما اقتربتُ أكثر زادت لهفتي وشوقي وحبي وشغفي الذي لم أفهم علّته بعد!، فوصلتُ وألقيت بثقلي على التراب، ألهث من التّعب، والإرهاق قد أخذ مأخذه منّي.

استجعمتُ "حُبي" و رفعتُ رأسي وشاهدتُ بين الخيم جمعًا من الفرسان على حدوده، كانوا يقابلون قلبَ المُحاصِرين، نهضتُ مسرعًا، فهناك ما يجذب قلبي في هذا التجمّع، شيءٌ يجرّني وبقوة، فهرولتُ و وصلت إليهم بسرعة، لأنَّ كثيرًا منهم كانوا طويلي القامة، فلم أستطع أن أرى ماذا يشاهدون.

حاولتُ تخطّي الصفوف، وإذا بي أسمعُ صوتًا واحدًا

فقـط!، صـوتٌ اخـترق قلبي!، صـوتٌ أُقسـمُ أني أعرفـه، حتى ولـو لم أسـمعه مـن قبـل، صـوتٌ " أعشـقه، صـوتٌ أمـوتُ لأجلـه، صوتٌ " كنتُ أنتظـره!، دفعتُ بعـض الموجودين دون شـعور، فتعثّـرتُ عندمـا تخطّيتهم، فأصبـحَ الصـوتُ واضحًا!.

رفعـتُ رأسي قليـلاً، فرأيـتُ أقدامه!، ولكـن من خلف، فقـد كانَ موجّهًـا وجهـه إلى الجهـة الأخـرى، حبـوتُ قليـلاً للأمـام لأقـف خلفـه مـع المتجمهريـن، فنهضـتُ وإذا.. كان الـذي أعرفـه!

٤

إنهُ الحُسين!..

وعلى الرّغم من أني لم أر وجهه، فقد كانَ يوجّه كلامه إلى عسكرٍ ضخم أمامَه، إلا أني أعرفه جيّدًا، وكيفَ لا أعرفه وهو الحَبيب!، الذي لطالما انتظرتُ لقاءهُ، وتمنّيت رؤيته.

أردتُ أن أرى وجهه لكني لم أستطع التحرك قيد أُنملة، فكان الجو مُربكًا، ورأيتهُ قد تقدّمَ خطوات نحو ذلك الجيش، واتّكأ على قائمِ سيفه ونادى بأعلى صوته:

- أُنشدكم الله هل تعرفوني؟

آه وألـف آه، عندما قالهـا أمامِي اقشـعرَّ جلدي، وضعفَ بـدني، فقـد كانَـت نبرتُـه كلّهـا غُصّـة، شـعرتُ بألمِـه، تذوّقـتُ غصّتـه، وتمنّيـتُ المـوت عـلى أن أرى إمامـي يتألّم، وهُنـا أدركتُ معنى **"يحزنـون لحُزننـا"**، وكان كالقـرآن الناطـق، فهـو وارث الأنبياء.

وقطـع حبـلَ ألمـي صـوتُ الجيـش المقابـل حـينَ أجابوا: **"**نعـم، أنـتَ ابن رسـول الله وسـبطه**"**، عجيـب!، إنّهم يعرفـون مـن هو، يعرفـون أنَّ جدّه هـو النبي الأكـرم محمد صلى الله عليـه وآلـه، إذًا لماذا يقفـون في وجهه؟ لماذا يرفعون سـيوفهم أمامَـه؟، أنسـوا أنّـه سـبطُ نبيّهـم؟ **أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُـولَهُمْ فَهُـمْ لَهُ مُنكِـرُونَ؟**، **أَمْ يَقُولُـونَ بِـهِ جِنَّةٌ؟**، ألفُ سـؤالٍ راودني ولم أحصل عـلى أي إجابـة، وسـلبَ تفكـيري صـوتُ إمامـي حينَ سـألهم:

- أُنشدكم الله هل تعلمون..

إن أبي علي بن أبي طالب؟

عندمـا سـمعتُ اسـم أمـير المؤمنـين عليـه السـلام مـن لسـانِه الشريـف، لم أتمالك نفـسي!، كأنّها المرّة الأولى التي أسـمعُ

فيهـا اسـم أبي!، نعـم، عليٌّ هـو أبي، وخفـقَ قلبي بحـبّ علي بن أبي طالـب عليه السـلام في تلـكَ اللحظة الحرجـة، وطربَت أذني لذكـر اسـمه، نعـم، حتى في هـذا الموقـف!، ولكنّ عينـي عادت إلى البـكاء عندمـا قـال لسـاني: "ها هو ابنـكَ يا علي، يـا أبي، بين يـدي الأعـداء، أنظـر إليه كيفَ يُناشـد القـوم ويذكّرهـم بكَ"، وفجـأة خَـرَسَ لسـاني عندمـا ناشـدهم إمامـي الحُسـين عليـه السـلام وكـسرَ قلوبنـا جميعًـا فقال:

- أُنشدكم الله هل تعلمون..

إن أُمّي فاطمة الزهراء بنت محمد المصطفى؟

أجهشـتُ بالبُـكاء بمجـرّد سـماعي لاسـمها، وناجيتهـا سـألتها: "هـل تريـنَ ابنكِ يـا مكسـورة الأضـلاع؟" وتذكّرتُ مصـابَ سـيدة نسـاء العالمـين عليهـا السـلام، ولم أتمالـك نفسي وأنـا واقـفٌ خلـفَ إمامـي، هـل يُعقـلُ أن هـؤلاء هـم مـن أمّةِ محمّـد؟ هـل يعلمـون أنّهم يحاربـون ابنَ بنـتِ نبيّهم؟ حقًّـا أنا لا أفهـم، وكانَ إمامـي يُكمـل مناشـدته ويسـألهم ويقـول:

- أُنشدكم الله هل تعلمون..

إن جدّتي خديجة بنت خويلد أول نساء الأمة إسلامًا؟

أُنشدكم الله هل تعلمون..

إن حمزة سيد الشهداء عم أبي؟

أُنشدكم الله هل تعلمون..

إن جعفر الطيار في الجنة عمي؟

وكانوا لا يجيبون إلا بنعم، وهذا يعني أنهم يعلمون!، **بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ!**، وكانوا هم من يُلقي الحُجّةَ على أنفسهم بالاعتراف!، وهذا هو الغريب، فكانوا يستطيعون الالتزام بالصمت أقلاًّ؟ ولكن الجواب بنعم و وقوفهم بعدها بسيوفهم ورماحهم وسهامهم أمامَه يُعدُّ حربًا، نَصبًا، بُغضًا، عنادًا، وليس فقط هتكًا لحُرمة سيد شباب أهل الجنة عليه السلام!، عجيبٌ أمرهم..!

٥

بعدَ أن ناشـدهم عن نسـبه الشريف أشـار حبيبي وإمامي الحُسـين عليه السـلام إلى سـيفه وسـألهم:

- **هل تعلمون إن هذا سيف رسول الله أنا مُتقلّده؟**

إنـه سـيفُ أبي الزهـراء صـلى الله عليـه وآلـه!، صـلى الله عليـكَ يـا رسـول الله، وكيـف لا يكـون بيـدِ سـبطك وهـو الوريـث الشرعـي الوحيـد، ولكـن المصيبة أنّهـم قالـوا: **"اللهم نعـم"**، يعلمون أن هـذا هو سـيفُ نبيّهم!، إنهم يحاربون سـيف

نبيّهم، لحم ودم نبيّهم، وما آلمني أكثر عندما شاهدت إمامي يرفع يدهُ ويُشير إلى عمامته وقال:

- **أُنشدكم الله هل تعلمون..**

إن هذه عمامة رسول الله أنا لابسها؟

الله الله، هذه هيَ؟ العمامة التي كنتُ أحلمُ برؤيتها والتبرّك بها، أهذه هي "السحاب"؟، العمامة التي ألبَسها النبي صلى الله عليه وآله وصيّه و وزيره وخليفته الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في يومِ غدير خُم؟، ثم قال لهُ أدبر ياعلي، فأدبر، ثم قال له أقبل يا علي، فأقبل، هي ذاتها؟، العمامة التي أفرحَت قلبَ سيدي النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأسعدته عندما كانَت على رأس أخيه أمير المؤمنين عليه السلام؟، ولكن كالمرّة الأولى، فرحتُ لوهلة ثم كُسِرَ قلبي مرّةً أخرى، الآن أراها على رأس إمامي الحُسين عليه السلام، ولكنّهم يرفضون تأدية حقوقها، كما رفضوا تأدية حقوقها عندما كانت على رأس أبيه!، وأكمل حبيبي الإمام الحسين عليه السلام مناشدته فقال:

- **أُنشدكم الله هل تعلمون**

إن عليًّا كان أول القومِ إسلامًا وأعلمهم علمًا وأعظمهم حلمًا وإنه ولي كل مؤمنٍ ومؤمنة؟

يا حبيبي يا حُسين، كأنّك تريد إشباعَ فراغ شوقي لذكر أمير المؤمنين عليه السلام، قُلتها بعدَما تذكّرتُ واقعة الغدير وتنصيب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، اشهد لي يا حبيبي يا حُسين، وأنا خلفك، أني لا أُوالي إلا أباكَ أمير المؤمنين، واشهد لي عندَ جدّك رسول الله أني أُحبّهُ، آهٍ آه يا حبيبي يا حُسين، كم أريد في هذه اللحظة أن أُعبّر عن حُبّي لأمير المؤمنين عليه السلام، كم أتمنّى أن أحكي لكَ عن شوقي لرؤيته، أرجوك أخبر أمّك فاطمة صلوات الله عليها أني أحبّه، أخبر أخيك الحسن عليه السلام أني أحبّه،نعم، أُحبُّ عليًّا، أحبُّ حروف اسمه، أحبُّ ذكره، أحبُّ حُبّي له، وعلى الرّغم من علمي بأن سيدي وحبيبي الحُسين عليه السلام يعلم بما يخفيه صدري، إلا أنّي أردتُ أن أكشفَ له ما تُخفيه سريرتي من حُبي، أردتُ أن أخبره عن كل هذا، ولكنّي لا أرى إلا ظَهره المُبارك، وأعداءه قد حالوا بيني وبينه، أشغلوه عني، وأرى في وجوههم بُغضَ علي!، ولكنّهم لم يملكوا إلا

الاعـتراف رُغـم بغضهـم فقالوا: **"اللهم نعم"**.فسـألهم سـؤالًا كـسرَ قلبـي، وجعلنـي أعـضُّ عـلى شـفتيّ مـن الحَسرة:

- فبمَ تستحلّون دمي؟ وأبي الذائدُ عن الحوضِ يذود عنهُ رجالاً كما يذاد البعير الصادر عن الماء، ولـواء الحمد في يـد أبـي يـوم القيامـة؟

سـقطتُ عـلى ركبتَـيَّ بعدمـا سـمعتُ هـذه الكلمـة مـن إمامـي، إمـامُ الأمّـة، وسـيدُ شـباب أهـل الجنـة، الـذي اعترفوا بـهِ مـن يقفـون أمامَه قبـل قليل، واعترفـوا بأن جدّه رسـول الله، وأن أمـه سـيدة نسـاء العالمـين، وأن أبـاه أمـير المؤمنين، يسـألهم هـذا السـؤال!، لقـد كـسرَ قلـبَ كلّ مَـن هـم حَـولي، شـعرتُ أنّهـم أرادوا أن يصرخـوا ويقولوا نحـنُ فداؤكَ يا سـيدنا، رأيتُ البعـض قـد أحكـمَ قبضته بكل قـوّة لدرجـة أنّها كانـت ترجف مـن الغضـب، وأيُّ غضـب؟ غضـبٌ لله عـز وجـل، غـيرةً على ابـن بنـتِ رسـوله، ولكنّـي تيقّنـتُ هُنا أن الـكل سـينكسرُ قلبه، فبعـدَ هـذا السـؤال، حتـى الذيـن أتـوا لمُحاربـة إمامـي وحبيبي الحُسـين عليـه السـلام سـيتراجعون الآن، والحمـدلله سـتنتهي هـذه الحـرب قبـل أن تبـدأ، فقبـل قليـل اعترفـوا بـكل شيء، والآن انكـسر قلبهـم، وخيّـم عـلى المكان هـدوءٌ غريـب، فقطع

هـذا الهـدوء أحدهـم في الجهـة المقابلـة لنـا وقال:

- قد علمنا ذلك كله.

وهُنـا ابتسـمتُ، الحمـدلله، انتهـى كل شيء، لا حاجـة للحـرب، لا حاجـة إلى إهدار دماء المُسـلمين، ولكنّـه سرعان ما أكمـل جملتـه وقـال:

- ونحنُ غير تاركيك حتى تذوقَ الموت عطشًا!.

الله أكـبر!، كيـفَ تجـرَّأ؟، ألم يعـترف قبـل قليل بـأن أمير المؤمنـين عليـه السـلام هـو وحده قسـيم الجنـة والنـار؟، ما هذا القلـب ومـا هـذا الحسـد؟، هل هـو صـوتُ إبليس الـذي يئس مـن رحمـة ربـه بعنـاده؟، هـل هو صـوت الشـيطان نفسـه الذي علـمَ أنـه مطـرود وبـدلَ أن يتراجـع ويسـتغفر ويتـوب يطلـب مهلـةً لإضـلال غـيره!، هاجت في نفسي أحاسـيس ومشـاعر لا حـصر لهـا، حـيرة، غضب، خـوف، حـزن، حـسرة..!.

هـؤلاء هُـم أبنـاء مـن كـسرَ الضلـع، وحـرق البـاب، وأسـقط الجنـين مـن بطـن أمّـه، هـؤلاء هُـم مـن دخلـوا بـلا اسـتئذان في بيـوتٍ أذن الله أن تُرفَـع ويُذكـرَ فيهـا اسـمه.

وما هذا الصّوت الذي أسمعه من الخلف وقاطعَ أحاسيسي ومشاعري؟ إنه ليسَ صوتَ حبيبي الحُسين عليه السلام، فلا أحد منّا كانَ يُخرجُ صوتًا احترامًا لوجوده!، ولكن هذا الصوت ليس من جهة الأعداء، إذًا من أينَ يأتي؟، حاولت الإنصات، وكان الصوت يزدادُ ارتفاعًا، هل يُعقل؟، هل هذا ممكن؟ إنه صوتُ نساء وأطفال؟ يبكون، يندبون ويلطمون، ولا زالت ترتفع!، لماذا هُم هُنا؟ والتفتُ يمينًا ويسارًا وقلّبتُ وجوه أنصار حَبيبي، وإذا بهم يطرقون برأسهم الأرض، دموعهم بلّلَت لحاهم.

وإذا بحبيبي ينادي إثنين بجانبه، لم أرَ وجههما، ولكني أعرفهما، نعم، أُقسم أني أعرفهما، كما عرفتُ حبيبي وإمامي الحُسين عليه السلام، إنهما هما!، الأول كان قمر بني هاشم أبا الفضل العباس عليه السلام، وعرفتُه من كثرةِ تأمّله في وجه أخيه الذي كانَ يُناديه بِـ "سيدي"، والثاني كان شبيه رسول الله، علي الأكبر عليه السلام، الذي رأيتهُ فأطلق لساني عنانَ الشّوق مُسلّمًا على نبي الرحمة قائلاً: "صلى الله عليكَ يا رسول الله"، فكانت هذه علامة معرفتي بسيدي علي الأكبر عليه السلام، قرّبهما حبيبي الحُسين عليه السلام إليه ثم قال:

– سكّتاهن، فلعمري ليكثرنَّ بكاؤهن.

٦

في تلكَ الأثناء أتى فارسٌ قبيح الوجه واقتربَ من مُعسكرنا، توقّف أمامنا وصاح:

- **بنو أختي عبدالله وجعفر والعباس وعثمان**

أعرفُ هذه الأسماء جيّدًا، أربعةٌ لا يفترقون أبدًا، أربعةٌ لطالما بكيتهم، أربعةٌ أنجبتهم "الوفاء كله".

لم يعيروا أي اهتمام للفارس القبيح الذي ناداهم، بل

التفتوا مباشرةً إلى سيّدهم وإمامهم الحسين عليه السلام، منتظرين أوامره، فأجابهم إمامي:

- **أجيبوه وإن كانَ فاسقًا**

وتوجّهوا إليه امتثالاً لأوامر الحُسين عليه السلام، وسمعتُ همسًا حولي فضحَ هويّة هذا الفارس القبيح، ويا ليتني لم أعرفه!، ويا ليتني لم أسمع باسمه!، كانَ **"الشمر بن ذي الجوشن"**، الاسم الذي يجعل دمي يغلي في جسمي، واقتربتُ منهم لأسمعه يتحدّث مخاطبًا الأربعة أبناء الوفيّة، فقد كانَ صوته عاليًا مسموعًا، فسمعتهُ يقول لهم:

- **يا بَني أختي، أنتُم آمنون، فلا تقتلوا أنفسكم مع أخيكم الحُسين**

أرادهم أن يتركوا أخاهم الحُسين عليه السلام؟ ألم يعلم أن أمّهم أرضعتهم الوفاء لأخيهم؟ ألم يعلم أنّها علّمتهم أن ينادوا أخاهم بِـ **"سيدي"**؟، ألم يعلم أنّهم أبناءُ **أُم البنين!**، آذاني كثيرًا بطلبه، إلا أن قمر بني هاشم قد شفى غليلي بجوابه حين قال:

- تبّت يداك، ولعن ما جئتنا به من أمانك يا عدو الله، أتأمرنا أن نتركَ أخانا وسيّدنا الحُسين بن فاطمة عليهما السلام، وندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء!

سبحان الله ما أشبه القوم بالقوم، وكأن الأيام تعيد نفسها، فبالأمسِ يأتي المشركون لأبي طالب عليه السلام يساومونه على تركِ ابن أخيه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يرفض وينهرهم، وها هو حفيده .. يتكرر معه نفس المشهد!.

سلام الله عليكَ يا قمر العشيرة، ونعمَ الأخ المواسي لأخيك، فعلاً شفا غليل الكل في المُعسكر، والكل ابتسَم لهذا الموقف، والأجمل أنّنا جميعًا شاهدنا الشمر قد اصفرَّ لونه وعادَ غاضبًا إلى معسكره خائبًا، وعاد العبّاس عليه السلام إلى مخيّمنا ليستقبله أخوه الحُسين عليه السلام، وما حيّرني في نفسي، أنَّ العبّاس كان يعود باتّجاهي، لأني كنتُ واقفًا في مقابل موقعه، لم أتجرّأ على رؤية جمال وجهه، لم أستطع حتى رفع رأسي، هيبتهُ كانت تُطأطئُ رأسي وتُغمضُ عيني، احترامي إليه يجعلني أُجبَرُ على أن أحني رأسي بمجرّد مروره أمامي ولو من بعيد، وأكثر من ذلك فإن شوقي وحبي قد ذابا وخضعا

وسجدا لهيبته!، ولم يحاول المقاومة، بل سلّم نفسه وحرمَ عيني من رؤية جمال وجهه، كنت أشعرُ بأنه لم يُؤذن لي بالنّظر إلى وجهه، وكنتُ أكتفي بالنّظر إليه من خلف، والاستماع إلى صوته.

وفورَ وصوله إلى أخيه وسيّده الحُسين عليه السلام، استقبلتهُ أخته المخدّرة، العقيلة زينب الكبرى عليها السلام، التي لا تراها عين، ولا يُلمحُ لها ظل، وريثة أُمّها سيدة نساء العالمين، العالَمة غير المُعلّمة، الفهمةُ غير المُفهّمَة، وقالت له:

- أخي، إني أُحدّثكَ بحديث؟

فأجابها كافلها بهيبة الكفالة:

- حدّثي يا زينب، لقد حلا وقت الحديث

وكنتُ أستمعُ إلى حديثهما ودموعي تقطرُ من لحيتي، فحكت العقيلة عليها السلام وقالت:

- إعلم يا ابن والدي، لما ماتت أمنا فاطمة عليها السلام، قال أبي لأخيه عقيل: أُريد منكَ أن تختار لي امرأةً، من ذوي البيوت والشجاعة، حتّى أُصيبَ منها ولدًا ينصرُ ولدي

الحُسين بطفّ كربلاء، وقد ادّخرَكَ أبوكَ لمثل هذا اليوم، فلا تُقصّر يا أبا الفضل!

وصيّةٌ ليست كالوصايا، ما إن سمعها قمر العشيرة عليه السلام، حتّى انتفضَ في ركابِ سرجهِ، فقطعها!، وصاح:

- أفي مثل هذا اليومِ تشجّعينني، وأنا ابنُ أمير المؤمنين عليه السلام؟!

وسُرّت المُخدّرةُ سرورًا عظيمًا، وكيفَ لا، وكافلها وناصرُ أخيها هو العباس بن علي بن أبي طالب، ابن فاطمة بنت حزام الكلابية، التي انتخبها أبوه فقط لتلدَ له أسودًا في الوغى، ينصرون سيّدهم الحُسين عليه السلام.

٧

توجّه الإمام الحُسين عليه السلام إلى أخيه قمر العشيرة بعد أن رأى القومَ حرصوا على تعجيل القتال قائلاً:

- إن استطعت أن تصرفهم عنّا في هذا اليوم فافْعل، لعلّنا نُصلّي لربنا في هذه الليلة فإنه يعلم أني أحب الصلاة له وتلاوة كتابه.

عندما سمعتُ هذه الكلمة من لسان حبيبي، شعرتُ برغبةٍ جنونية لأداء الصلاة والعبادة، ولتلاوة القرآن الكريم،

وتعجّبتُ من نفسي، فكثيرًا ما كنتُ أتمنّى أن يكون لدي الواعظ من نفسي الذي يشجعني على التوجّه نحو العبادات، ولكني لم أصل إلى هذه الدرجة من قبل، وهنا تعرّفتُ على مفهومٍ جديد من مفاهيم الحُب، فلأني أُحب حبيبي الإمام الحسين عليه السلام حُبًّا جنونيًّا، أصبحتُ أُحبُّ كل ما يحبُّه حبيبي، فعندما شاهدتُ بأمّ عيني تعلّقه بالصلاة والعبادة، زاد تعلّقي بها، وتمنّيت أن أُصلّي في مكاني، فعلاً إنه "مصباح الهُدى"، فحُبُّ الحُسين عليه السلام أفضل وسيلةٍ للتمسّك بنهج الله عز وجل، وأسهل طريقٍ للتعلّق بالعبادات التي يريدها الله عز وجل من العبد، وتذكّرتُ في تلكَ اللحظة قول النبي صلى الله عليه وآله:

- حُسينٌ منّي وأنا من حُسين، أحبَّ الله من أحبَّ حُسينًا

وكيف لا يحبُّ الله من أحبَّ الحُسين عليه السلام حُبًّا حقيقيًّا، فبحبّ الحسين، سيحب العبد كل ما يحبّه الله عز وجل، وسيُقدم على العبادات بقلبٍ مطمئن، مُسلّم، مؤمن، بكل يقين ومعرفة، وفي هذه اللحظة التأمليّة، ذهب العباس عليه السلام إلى الأعداء وسألهم ما طلبَ منه الحُسين عليه

السـلام، وأجابـوه و وافقـوا.

وعـادَ الهـدوء ليتسـيّد الموقـف، وبقـيَ الأنصـار في حالةِ خشـوعٍ ليـس لهـا مثيـل، وكنـتُ أراقبهـم وأراقـبُ طاعتهـم لسـيّدهم، وحُـبَّ مـا يحبّـهُ سـيّدهم، واسـتمعتُ لأحاديثهم مع بعضهـم، فميّزتهـم، وحفظـتُ وجوههـم وأسـماءهم.

٨

ابتعـدَ حبيبي الحُسـين عليـه السـلام عنّـا، وكان معه عبدٌ أسـود اسـمه "جون" وقـد كانَ خادمًـا لأبي ذر الغفـاري، فلـم أتمالـك نفسي، لحقتهـما، أردتُ أن أكونَ كظلّه -ولـو من بعيد-، فهـا هو إمامـي أمامي أخـيرًا، وأحببـتُ أن أكون من المُسـارعين إليـه في قضـاء حوائجه.

كـانَ يمـشي فأمـشي، يقـفُ فأقـف، يرتـاحُ فأرتـاح، وأنتظـره.. فـإن سـألَ أجبت، وكنـتُ أعلمُ أنه يشـعرُ بي، ويعلمُ بحاجتـي إليـه، وعلمـتُ بأنه تركنـي أُحبّـهُ كما أريـد، جلسَ مع

جـون، فجلسـتُ مـن بعيد جلسـةَ العبـدِ الذليـل، وبيدهِ سـيفه، فسـمعتهُ يرثـي نفسـه قائـلاً:

يا دهرُ أُفٍّ لكَ مـن خليلِ كم لكَ بالإشراقِ والأَصيلِ
مِن صاحبٍ أو طالبٍ قتيلِ والدّهـرُ لا يقنعُ بالبديـلِ
وإنما الأمـرُ إلى الجليـلِ وكلُّ حيٍّ سالكُ السبيـل

وكانَ يكرّرهـا ويعيدهـا، فانفطر قلبـي عليه، وشـقَّ عليّ رثـاء إمامي لنفسـه، جزعتُ في مكاني، وإذا بامـرأةٍ مخدّرة تقتربُ منـه، ومـا إن وصلـت إليـه حتـى قالـت في بكائها:

- واثـكلاه .. ليـتَ المـوتَ أعدمنـي الحيـاة، اليـومَ ماتت فاطمـة أمـي، وعلي أبي، وحسـنٌ أخـي، وأبيضُ يستسـقي الغمام بوجهـه ثـمالُ اليتامـى عصمـةٌ للأرامـلِ .. بأبي أنـتَ وأمـي يا أبا عبـدالله، اسـتقتلتَ نفسـي فـداك .. يـا ويلتـي أفتغصبُ نفسـكَ اغتصابًـا؟، فذلـكَ أقـرحُ لقلبـي وأشـدُّ عـلى نفسي

لطمَت وجهها.. صَرَخَت..

صرخـتُ بأعـلى صـوتي ولطمـتُ وجهـي دون توقّـف،

وهنا تمنّيتُ أن أموت مرّة أخرى!، ولم أشعر بنفسي أثناء لطمي لوجهي، ولاحظتُ بعدها أني لم أكُن ألطم بكفي، بل بقبضتي!، فتورّم وجهي وأنا أصرخُ وأنادي: "يا زينب".

قام إليها إمامي، صبّرها، هدّأها، فهو معها الآن!، لم يرضَ بأن تبكي، لم يقبل بأن تحزَن، إنها زينب!، أمانةُ أبيه أمير المؤمنين عليه السلام، ولا يمكن أن يمسّها كرب وأخوها موجود، فقال لها:

- يا أخيّه اتقي الله وتعزّي بعزاء الله واعلمي أن أهل الأرضِ يموتون، وأنَّ أهل السماء لا يبقون، وأن كل شيء هالك، إلا وجه الله الذي خلقَ الأرض بقدرته، ويبعثَ الخلق فيعودون، وهو فردٌ وحده، أبي خيرٌ مني، وأمي خيرٌ مني، وأخي خيرٌ مني، وليَ ولهم ولكل مسلمٍ برسول الله أسوة ..

ثم أدخلها في الخيمة التي كانَ بها ابنهُ زين العابدين عليه السلام.

وا زينباه ...

في هـذه الأثنـاء العصيبـة تجلّـت لي .. لا بـل تيقّنـت .. لا بـل عشـت الآيـة الكريمـة: **"اللهُ أَعْلَـمُ حَيْثُ يَجْعَـلُ رِسَـالَتَهُ"**، بـكل وجـودي، فأنـا أجثـوا بـين جبلـين ينحـدرُ عنهـما السـيل ولا يرقـى إليهـما الطـير، جبـل الصّـبر زينـب .. وجبـل الإيـمان والعزيمـة الحُسـين صلـوات الله عليـه.

بـل يحـقُّ لي أن أدّعـي أن القـرآن الكريـم بأكملـه قد تجلّى لي في هـذه اللحظـات!

٩

لاحظت حركةً غير اعتياديّة في مُعسكره، مجاميع تتحرّك لا أعلم إلى أين، كانت المجاميع تتراوح ما بين العشرة والعشرين، أمعنتُ النّظر في وجوههم، كان الخزيُ قد أكلَ ملامحهم، يمشون مشيةً سريعةً نوعًا ما، مطأطئين الرؤوس، كأنهم لا يريدون أن يراهم الحُسين عليه السلام.

لحقتُ إحدى المجموعات، أردتُ أن أفهم ما الذي يجري!، لماذا هم على هذه الحالة، إلى أينَ يقصدون؟، ظننتهم يريدون إحدى الخيام، ولكنّهم تعدّوا جميع الخيام، وصلوا

إلى حـدود المُعسـكر، هـل كانوا يريـدون استكشـاف المنطقة على الحـدود؟، لا .. لقـد أكملـوا طريقهـم!، خرجـوا مـن المخيّـم، وخلفهـم كل المجاميـع.

كانوا يسـحبون سـيوفهم عـلى الأرض كأنهـم لا يريدون القتـال، يـا إلهـي ...!، إنّهـم يتركـون الإمـام الحُسـين عليـه السـلام!!

عُدتُ راكضًا إلى سـيدي ومولاي الحُسـين عليه السـلام، فوجدّته مُنكّسًـا رأسـه... شـعرتُ بضيقٍ في صدري، اختناق... حُرقة!.

رأيـتُ طفلـةً كانـت تراقـبُ أباهـا وقـد خنقتهـا العـبرة وهـي تشـاهده في هـذه الحالـة، وكـسر قلبـي حالهـا، فرفعـت طرفهـا إلى السـماء وقالـت ببكائهـا:

- اللهـم إنهـم خذلونـا فاخذلهـم ولا تجعـل لهـم دعـاءً مسـموعًا، وسـلّط عليهم الفقـر، ولا ترزقهم شـفاعة جدي يوم القيامـة

ثـم هرولـت إلى المخيّـم وهـي تبكـي فاسـتقبلتها امـرأةٌ

مخـدّرة واحتضنتهـا وأخبرَتهـا بالـذي حصـل مـع أبيهـا وكيـف خذلـوه فصاحـت المخـدّرة:

- واجـدّاه .. واعليّـاه .. واحسـناه .. واحسـيناه .. وا قلّة نـاصراه .. أيـن الخـلاص من الأعـداء؟ ليتهـم يقنعـون بالفداء، تركـت جـوار جدّك وسـلكت بنـا بُعـد المدى، فعـلا منّـا البكاء والنحيـب.

ولّمـا عـلا بكاؤهـنّ أتاهـن إمامـي الحُسـين عليه السـلام مُسرعًـا ولاحظـتُ دموعـه تتقاطـر من لحيتـه المباركة وسـألهنّ:

- ما هذا البكاء؟

لم تعلّـل المُخـدّرة سـبب البـكاء، وأجابت ولكـن بطلبٍ زادَ إمامـي همًّـا:

- يا أخي رُدّنا إلى حرم جدّنا

آه .. يـا ليتنـي مـتُّ قبـل أن أسـمع هـذا الطلـب مـن المخـدّرة، يـا ليـتَ أُمّـي لم تلـدني ولا أرى حبيبي الإمام الحُسـين عليـه السـلام قد احتارَ بنسـائه، نسـاء رسـول الله صـلى الله عليه وآله

- يا أُختاه... ليس لي إلى ذلك سبيل

وكيفَ سيكون إلى ذلك سبيل وقد احتشدَ الآلاف وحاصروا الغريب، ومنعوا عنه الماء، وعطّشوا حتى النساء والأطفال، ولم يريدوا إلا القتال!

فاحتارت المخدّرة مع حيرة سيّدها، وأردفت:

- ذكّرهم محل جدّك وأبيك وأمّك وأخيك

يا مخدّرة، يا ليتكِ سمعتِ كيف كان الحُسين عليه السلام يذكّرهم باسمه ونسبه، يعرّفهم بأمه وأبيه وجدّه، "فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون".

- ذكّرتهم فلم يذّكروا، و وعظتهم فلم يتّعظوا، ولم يسمعوا قولي، فما لهم غير قتلي سبيل ..

أرجوكَ لا تقلها يا أبا عبدالله، لا تقُل "قتلي"، لا تقلها، لا أبقاني الله بعدكَ يا حُسين، وإن كان ولا بد، فإما أن أُقتلَ قبلكَ .. أو أُقتَل!.

لا أتجرّأ على مقاطعة إمامي، ولا أتحمل سماعَ منه كلمة

"قتلي"، وكأني أُريد أن أُكذّب أُذني، لا أريد أن أصدّق أنه سيُقتل، لا أتحمّل هذه الفكرة، ولكنّه لم يكتفِ بهذه الكلمة المرّة، وأكملَ أمامَ المُخدّرة وأمامَ الطفلة:

- .. ولابدّ أن تروني على الثرى جديلاً .. ودّعتكم إلهي الفرد الصّمد

لحظة واحدة .. على الثرى؟، جديلاً؟، ماذا يقصد إمامي؟، وليسَ هذا ما خفتُ منه، وليس هذا ما أضعف بدني، بل "تروني"، كيفَ ستتحمّل المخدّرة والطفلة هذا؟، لماذا سيرانه؟، بل كيف سيرانه؟، أليسوا نساء؟، والنساء مكانهن الخيمة وليس في سوح القتال.

١٠

جلستُ أراقبُ إمامي وحبيبي الحُسين عليه السلام، وأخيرًا قد هدأت اللحظات، وتباطأت، توقّف بكائي .. ولكن عيناي متورمتين من اللطم والبكاء، رأيته خرج في جوفِ الليل، وتبعهُ أحدُ أنصاره، أمعنتُ النّظر وإذا به نافع بن هلال، لم يكن كغيره من الأنصار، كان عاشقًا مُتيّمًا بإمامي، يلازمه دائمًا، لا يتركه أبدًا، ودائمًا ما يكون مُستعدًّا لتلبية نداء سيّده، كنتُ أغبطه حقًّا على هذا القُرب، لحقتهما، فلاحظ إمامي لحاق نافع به، فالتفتَ وسأله عن سبب خروجه،

فأجاب:

- يابـن رسـول الله، أفزعنـي خروجك إلى جهة مُعسـكر هـذا الطاغـي

ولاؤه لم يكُـن اعتياديًّـا أبـدًا، فزعـه حقيقـيّ، يدافـعُ عن إمامـه حتى قبـل الحرب، حتـى في وقتِ الراحـة، يلحقه حتى في الليـل، لم يُـرد أن يصيبـهُ أي مكـروه، وأخـبره إمامي بأنـه خرجَ ليتفقّـد الأماكـن المرتفعـة والمنخفضـة في المـكان فقـد يسـتغلها الأعـداء للهجـوم عليهـم سـاعة القتـال.

قبـضَ الحُسـين عليـه السـلام على يـدِ نافـع، وكـم تمنّيتُ أن أكـون مكانـه، كـم تمنّيـت أن يقبض إمامـي على يدي بشـدّة، ولكـن .. أيـنَ أنـا مـن نافـع!، فقـال له مـولاي:

- هي هي والله .. وعدٌ لا خلفَ فيه.

ثـم وجّه إمامـي وجهه نحو الـوادي المظلم، وهو ممسـكٌ بيـد نافـع، وأشـار بيـده إلى الظلمـة وقـال:

- ألا تسـلُكَ بـين هذيـن الجبلـين في جوفِ الليـل وتنجو بنفسـك ؟

لمستُ حُبّ الحُسين عليه السلام الشديد لنافع، فكأنه لم يرد أن يراه قتيلًا، أو أنهُ أراد أن يختبره مرّة أخرى، اختبارًا خاصًّا، وهو يريه ممر الهروب، لا أعلم!..، وكنتُ متوقّعًا من ثبات نافع، فهو المُقرّبُ من إمامي الحُسين، لن يتخلّى عنهُ بالتأكيد، وكنت أنتظر منه إجابةً تشفي غليلَ حاجتي للوقوف بجانب إمامي، ولكني تفاجأتُ عندما رأيته وقعَ بكل ثقله على قدمي حبيبي الإمام الحُسين، يقبّلهما بجنون، ويقول:

- ثكلتني أمي، إن سيفي بألف، وفرسي مثله، فوَالله الذي منَّ بكَ عليَّ لا فارقتكَ حتى يكلّا عن فري وجري

عُمقٌ معرفيٌّ لن أصلَ إليه ما حَييت، كيفَ خاطبَ إمامَه بكل أدب، كيف صاغ هذه الكلمات، كيف يُقسم بالله وبنعمة الحُسين عليه السلام عليه!، ما هذه المعرفة؟، ما هذا الوفاء يا نافع.

١١

عـاد سـيدي برفقـة نافـع بـن هـلال، إلى المخيّـم وعُدتُ خلفهـما، إلى أن دخـلَ سـيدي خيمـةً كانـت في قلـبِ خيـام أهل بيتـه، كأن الخيـام كلها تحـرسُ هذه الخيمـة، وأهل بيته يحرسـون سـاكنَ الخيمـة، فلم يتردد عقلي في تشـخيص الخيمـة، إنها هي .. خيمـةُ زينـب!، ووقفَ نافـع خـارجَ الخيمة وكأنـه ينتظر خروج سـيّده ليرافقه، فسـمعتُ أنا ونافع خطابَ الحُسـين عليه السـلام لأخته زينـب عليها السـلام:

- والله لقـد بلوتهـم، فـما وجـدت فيهـم إلا الأشـوسَ

الأقعس، يستأنسون بالمنية دوني استيناس الطفلِ إلى محالب أمه

كانَ سيدي يفتخر أمامَ أخته العقيلة عليها السلام بأنصاره، وثباتهم، ورباطة جأشهم، وشجاعتهم، وكان يخبرها عن اختباره لهم وكيف وجدهم، وكنتُ مبتسمًا في تلكَ اللحظة، سعيدًا، وكأن الخطاب كان عنّي، ولما نظرتُ إلى نافع، وجدتُه يبكي بكاءً شديدًا!، ما هذا العشق؟، أيبكي حتّى على افتخار إمامه به؟، فخرجَ مُسرعًا إلى حبيب بن مظاهر الأسدي، ذلك العظيم، الشيخ الجليل الوفي، وأخبره بما حصل بين الحُسين وأخته العقيلة عليهما السلام، فقال حبيب:

- والله لولا انتظارُ أمرِه، لعاجلتهم بسيفي هذا الليلة!

ما بالُ هؤلاء الأنصار؟، أيُعقل أن يُسرع المرء إلى موته من أجل الحُب!، يرى الموتَ فتاةً يُريد التعجيل بعناقها!، حقًّا .. لم أرَ أصحابًا ولا أنصارًا كهؤلاء.

قام حبيب فزعًا ونادى الأنصار بأعلى صوته:

- يا أصحاب الحميّة وليوث الكريهة

وثبـوا جميعهم كالأسـود، تلبيـةً لنداء هذا القائـد العظيم، والتفـتَ إلى بنـي هاشـم وصـاح فيهـم بـكل أدب:

- ارجعوا إلى مقرّكم لا سهرت عيونكم

ما هـذا الاحـترام المُذهـل؟، لا يجـرؤ على توجيـه خطابه إلى بني هاشـم عـلى الرغم من كبر سـنّه أمامهم، وعظم شـأنه في قبيلتـه، أرادَ أن يُعلـن بأن خطابه هو فقـط للأنصار، ولا خطاب لبنـي هاشـم إلا مـن سـيّدهم الإمام الحُسـين عليه السـلام.

حكـى للأنصـار مـا نقلـه لـه نافـع بـن هـلال، فأجابـوه كلهـم كـما أجـاب نافـع وصاحـوا:

- فطِبْ نفسًا وقرَّ عينًا

وناداهم جميعهم، وقال:

- هلمّوا معي لنواجه النسوةَ ونُطيّب خاطرهن

فتقدمّهـم، وكنـتُ خلفهـم، وسـيوفنا في أيدينـا، فرفـعَ سـيفه ورفعنـاهُ معـه، وصـاح في نسـاء بنـي هاشـم بنـبرةٍ ملؤها الغـيرة والحميّـة:

- يا معشر حرائر رسول الله، هذه صوارمُ فتيانكم، آلوا ألا يغمدوها إلا في رقاب من يُريد السوء فيكم، وهذه أسنّة غلمانكم أقسموا ألا يركزوها إلا في صدورِ من يفرّقُ ناديكم

اقشعرَّ بدني لخطابه، وشعرتُ أني أريد أن أركض إلى ساحة القتال الآن!، وأقتلَ كل من يُدخل الرعب في قلوب نساء الحُسين عليه السلام.

انتهى حبيب من زئيره، فخرجن النساء المخدرات العفيفات، بأنينهن، ببكائهن، بعويلهن، بصراخهن، وهن يقلن:

- أيها الطيّبون حاموا عن بناتِ رسول الله صلى الله عليه وآله وحرائر أمير المؤمنين عليه السلام

فبكوا جميعهم، وبكيتُ معهم، وبكت معنا الأرض والسماء، وكل حجرٍ ومدر، وكل حيٍّ وجماد.

وعندما سمعتُ باسم أمير المؤمنين عليه السلام، رفعتُ يدي، فعلا سيفي، وتذكّرتُ يوم غدير خُم، وكيفَ

كان رسـول الله رافعًـا يـدَ أمـير المؤمنـين، فتخيّلـتُ رسـول الله أمامـي، وعـليٌّ بجانبـه، ويدهمـا إلى السـماء، فبـدأتُ أصرخُ بجنـون دون توقـف بتناغـمٍ مـع حركـة سـيفي وأنـا أهـزّه:

- حيدر .. حيدر .. حيدر

١٢

بعـد هـذا الاسـتعراض العسـكري الـذي طَمْـأَنَ قلوبَ نسـاء بنـي هاشـم، اجتمـعَ الهاشـميّون في خيمـة العبـاس عليـه السـلام، فسـاقني فضولي للجلوس على باب خيمـة أبي الفضل، وسـمعتُ صوتـه العـالي وهـو يخاطـب فتيـةَ بنـي هاشـم قائلاً:

- يا إخـوتي وبني إخوتي وبني عمومتـي، إذا كان الصباح فـما تقولون؟

وكانَ بنـو هاشـم يحترمـون أبـا الفضـل العبـاس عليـه

السلام احترامًا خاصًّا، فهو القائد المباشر بعدَ سيّده الحُسين عليه السلام، فأجابوه:

- الأمر إليك يرجع، ونحنُ لا نتعدّى لكَ قولك

فقال العباس عليه السلام:

- إن هؤلاء - أعني الأصحاب-، قومٌ غرباء، والحملُ الثقيل لا يقوم إلا بأهله، فإذا كان الصباح فأول من يبرز إلى القتال أنتم، نحن نقدمهم للموت، لئلا يقول الناس قدَّموا أصحابهم فلما قتلوا عالجوا الموت بأسيافهم ساعة بعد ساعة

فسمعتُ انتفاضتهم داخل الخيمة، تليها أصواتُ سلّ السيوف، وصاحوا:

- نحنُ على ما أنتَ عليه

فسمعتُ بعدها أصواتًا من خيمةٍ أخرى، لحقتُ الصّوت فأوصلني إلى خيمة حبيب بن مظاهر، دخلتها مباشرةً، ورأيتُ الأنصار مجتمعين حوله، وهو يسألهم:

- يا أصحابي لمَ جئتُم إلى هذا المكان، أوضحوا كلامكم

رحمكم الله

فرأيتُ وجوهم تغيّرت، وأجابوا:

- أتينا لننصر غريبَ فاطمة عليها السلام

غريب فاطمة!، كلمةٌ تحملُ كل الألم، تعلّقتُ بها كثيرًا، أبعادها عميقة، حُزنها كبير، يمتد إلى سيدة نساء العالمين عليها السلام، ركنها الأول غريبٌ يكسر الخواطر، وركنها الآخر أمٌّ ضلعها مكسور وزوجها مأسور!.

أكملَ حبيب بن مظاهر أسئلته:

- لمَ طلّقتُم حلائلكم؟

وأجابوه بنفس الجواب، لنصرة غريب فاطمة صلوات الله عليها، الأُم التي لم تُحفظ في ولدها.

- فإذا كان في الصباح ما أنتم قائلون؟

فأجابوه بأنهُ صاحب الرأي وهم معه، قرارهم هو قراره.

فارتفعت نبرةُ صوته وصاح:

- فـإذا صـار الصبـح فـأول مـن يـبرز إلى القتـال أنتـم، نحـن نقدمهـم للقتـال، ولا نـرى هاشـميًّا مضرّجًـا بدمـه وفينـا عـرقٌ يضرب، لئـلا يقول الناس قدّموا سـاداتهم للقتـال وبخلوا عليهـم بأنفسـهم

رفعوا سـيوفهم في وجهـه، ولوّحوا بها!، ورفعتُ سـيفي معهـم، وفـار دمـي غيرةً عـلى بني هاشـم، وصحتُ مـرة أخرى وأنـا ألوّحُ بسـيفي:

- حيدر .. حيدر .. حيدر

وكان اسـمُ أمـير المؤمنـين عليـه السـلام يُعطينـي المـدد والقـوّة، ويجعلنـي أشـعرُ بـأني مُسـتعدٌّ للقتـال الآن، كيـف لا وهـو القائـل: **"لأضربنّـك بسـيفي الـذي مـا ضربـتُ بـه أحدًا إلا دخـل النـار"**، كيـف لا وهـو القائل عـن أصحابـه الخُلّص: **"وقـد صحبَتهـم ذريّة بدريّة وسـيوف هاشـمية"**، كيف لا وهو قالـعُ بـاب خيبر، الضـارب بسـيفين، صاحب الضربـة التي قال عنهـا رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه: **"ضربة علي يـوم الخندق أفضـل مـن عبـادة الثقلين"**.

وكان جميع الأنصار يلوّحون بالسيوف، وأشاهد لمعانها، وأرى وجهَ حبيب، فأتاني الشعور بأني أريد معانقة الموت معهم، لأموت شهيدًا بين يدي سيدي ومولاي الحُسين عليه السلام، وكانت أعينهم لا تفارق وجه حبيب، وينادون وأنادي معهم:

- نحنُ على ما أنتَ عليه

١٣

وفي تلكَ اللحظة سمعتُ أحبَّ الأصوات إلى قلبي، إنه صوتُ سيدي ومولاي وحبيبي الإمام الحُسين عليه السلام، وأنزلتُ سيفي وهرولتُ خارج الخيمة، فشاهدتُه وبجانبه أخته المخدرة زينب الكبرى عليها السلام وكان يقول لها:

- **أُخيّه ..**

فأجابته باحترامِ وأدبِ أمها فاطمة عليها السلام:

- **لبّيكَ يا أخي**

- يـا أختـاه، منـذُ رحلنـا مـن المدينة مـا رأيتكِ مبتسـمة، أخبريني مـا سـبب تبسّـمكِ؟

وأخـيرًا .. كانـت زينـب عليهـا السـلام تبتسـم في وجـه أخيهـا بتصريـحٍ منـهُ صلـوات الله عليـه، فأخبرَته بأنها سـمعت مـا جـرى في خيمة العبـاس عليه السـلام، وفي خيمـة حبيب بن مظاهـر الأسـدي، وكانـت سـعيدة مـن تسـابقهم للمـوت على حُـب أخيهـا الحُسـين عليـه السـلام، فقـال لها:

- يـا أختـاه، اعلمـي أن هـؤلاء أصحـابي مـن عـالم الذر، وبهـم وعـدني جـدي رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه.

عادَ بكائي بعدَ تبسّـمي لابتسـامة العقيلـة في وجه أخيها، وعُـدت إلى محاسـبة نفسي، وبدأت الأسـئلة تـدور في ذهني، هل أنـا مـن الأنصـار الذيـن وعـد بهـم رسـول الله صـلى الله عليـه وآلـه سـبطه الحُسـين عليـه السـلام؟، هل سـأكون شـهيدًا قتيلاً معهـم؟، هـل سـأذوق الموتَ عـلى حُب الحُسـين عليه السـلام؟

وفي هـذه اللحظة بالذات اسـتذكرتُ كلمـة أميري الإمام عـلي بـن أبي طالـب عليـه السـلام التي اسـتبشرتُ بها حـين قال لـهُ أحـدُ أصحابـه: **"**وددتُ أن أخـي فُلانًـا كان شـاهدًا**"**، فقد

كان يتمنى هذا الصحابي أن يكون أخوه موجودًا معهم ولم يمُت، فأجابه أميري بسؤاله: "أهوى أخيكَ معنا؟" وقد كانَ أخ الصحابي يهوى ويحبُّ أمير المؤمنين عليه السلام ولذا أجاب الصحابي بِـ: "نعم"، فقال لهُ أميري: "فقد شَهِدَنا! .. ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء، سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان.."، وكنتُ دائمًا أدعو بأن أكون من الذين يقصدهم سيدي ومولاي أمير المؤمنين عليه السلام.

وهُنا أكمل سيدي كلامه مع أخته:

- هل تحبّين أن تنظري إلى ثبات إقدامهم؟

فوافقت العقيلة عليها السلام، فأمرها الحُسين عليه السلام بأن تذهب إلى ظهر الخيمة، وفَعَلَتْ، فنادى سيّدي:

- أينَ إخواني وبنو أعمامي؟

فوثبوا إليه كالأسود جميعهم، وسبقهم العباس عليه السلام وهو يردّد:

- لبيك .. لبيك .. ما تقول؟

- أريد أن أجدّدَ لكم عهدًا

فاجتمعَ حوله أولاده وأولاد أخيه الحسن، وإخوته، وأولاد جعفر وعقيل، ولم يبقَ أحدٌ من بني هاشم إلا وقد جلس حوله بعد أن أمرهم بذلك.

ثم نادى:

- أينَ حبيب بن مظاهر؟ أين زهير؟ أين هلال؟ أين الأصحاب؟

فتسابقوا جميعهم كما تسابقَ بنو هاشم، وسيوفهم في أيديهم، كأنهم ينتظرون إذنه ليركضوا في ساحة القتال، وكانوا يتسابقون حتى في جوابه ملبّين:

- لبّيكَ أبا عبدالله

جلسوا مع بني هاشم، وكانَ يخطب فيهم، وأخته فخر المخدرات زينب الكبرى عليها السلام في ظهر الخيمة تستمع إليه...

١٤

حمدَ الله وأثنى وعليه، والتمستُ من نبرته خوفه علينا!، وخيّم الخشوع علينا، ولم يُسمع أي صوت غير صوته، حتى سيوفنا كانَت تُنصتُ إليه.

- أما بعد، فإني لا أعلمُ أصحابًا أوفى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهلَ بيتٍ أبرَّ ولا أوصلَ من أهل بيتي، فجزاكم الله عنّي جميعًا خيرًا

بدا وكأنهُ يريد أن يودّعنا، ولكن ليس للتوديع مكانٌ

هُنـا؟، فـما الـذي كان يُريـده سـيدي؟

- ألا وإني أظـنُّ يومَنـا مـن هـؤلاءِ الأعداءِ غـدًا، ألا وإني قـد أذنـتُ لكـم.

نعـم، غـدًا تبدأ الحـربُ، ولكن لازلتُ لا أفهـم، ما الذي كانَ يريـده إمامـي؟، وبـماذا سـيأذن لنـا؟، بالقتـال؟، بالفداء؟، بالشهادة؟

- فانطلقـوا جميعًـا في حـل، ليـس عليكـم حـرج منّـي .. هـذا الليـل قـد غشـيكم، فاتّخـذوه جَمَـلا.

وا ويـلاه، أهـذا مـا كان يريده منّـا مـولاي؟، أن نتركه؟، هيهـات هيهـات، حاشـى لله، لـن أتـركك يـا مولاي، لـن أتخلى عنـك، أ أتـرككَ وحيـدًا غريبًـا؟، وها أنا بـين يديـكَ أراكَ واقفًا دون أن أجـرؤَ عـلى أن أرى جمـال وجهـك.

عـلى الرغـم مـن ضعـف بـدني إلا أني لـن أتـركك!، على الرغـم مـن أني أعلم بأني سـأُقتلُ فـور بداية القتـال!، إلا أن هذه القتلـة سـتكون أحـلى من العسـل.

لم أتجـرأ عـلى إخـراج هـذه الكلـمات مـن فمـي، فـكل

شـجاعة وحماسـة كانـت تُطأطـئ أمـامَ هيبتـه وعظمتـه، فبقيتُ صامتًـا ودمـي يفـور.

- وليأخُـذ كل رجـلٍ منكـم بيـدِ رجـلٍ مـن أهـل بيتـي، وتفرّقـوا في سـوادكم... فـإن القـومَ إنـما يطلبوننـي، ولـو قـد أصابـوني، لهـوا عـن طلـب غـيري.

انتهـى سـيدي ومـولاي من كلمتـه فوثب أخـوه العباس عليـه السـلام ومعـه إخوتـه فقـال:

- لِمَ نفعل؟ لنبقى بعدكَ؟!، لا أرانا الله ذلك أبدًا.

أي وفـاءٍ هـذا يا أبـا الفضل؟، وجـوده وكلامـه يطمئنان القلـب، ويجعلانـه يسـتقر ويهـدأ، قـرنَ وجـوده بوجـود أخيـه، بقـاءه ببقائـه، لا بَعدَ بعـدَ أخيه، ولم يكـن ذلك ببعيـدٍ عليه، فهو المُدَّخَـرُ مـن عـلي بـن أبي طالـب عليـه السـلام لهـذا اليوم.

وثبَ بعدهُ شـبيه رسـول الله صـلى الله عليه وآله، سـيدي ومـولاي عـلي الأكـبر فقـال:

- فـماذا نقول للنـاس إذا رجعنـا إليهم؟، إنا تركنا سـيدنا وابـنُ سـيدنا وعمادنـا، وتركنـاهُ غرضًـا للنَّبـل، ودريئـةً للرمـاح

.. وفررنا عنهُ رغبةً في الحياة، معاذ الله، بل نحيا بحياتك، ونموت معك!!

صلى الله عليكَ يا علي الأكبر، جزاكَ الله أفضل الجزاء، وأوفى الجزاء، كنتُ أتمنّى أني أستطيع رؤية وجه حبيبي الإمام الحسين عليه السلام، لأرى ردّة فعله وهو يسمع هذه الكلمات العذبة من ابنه، لكني لم أحصل على الإذن الذي أنتظره بعد، ولكنّي سمعتُ صوته، صوتٌ لم آلفهُ منه من قبل، لم يكن صوتًا لكلمات!، لم يستطع عقلي استيعاب هذا الصوت في البداية!، آه .. وألف آه، لقد كانَ صوت بكائه!، كان يبكي، فبكيتُ معه، وبكى الكلّ معه، فلطمتُ وجهي، وجزعت!، يا ليتَ أُمي لم تلدني، ولا أسمعُ بكاء إمامي، وشعرتُ أن الأرض تحت رجلي ليست مستقرّة، وكأنّها تبكي معنا، حتى السيوف التي كانت تُنصت لكلامه تغيّر حالها، ترعدُ بالظلام كأنّها تستجيبُ لبكائه، وتبكي معه، وتطلب نصرته، وقطع بكاءنا صوت الحُسين عليه السلام:

- جزاكم الله خيرًا

١٥

وجّـه إمامـي في هـذه المـرّة خطابًا خاصًّـا إلى أبنـاء عقيل بـن أبي طالـب وقـال:

- يـا بني عقيـل، حسـبكم من القتـل بمسـلم، اذهبوا قد أَذِنْـتُ لكـم!.

مـا إن سـمعتُ باسـم السـفير من لسـان حبيبي الحُسـين عليه السـلام وجّهـتُ وجهي نحـوَ الكوفة، واقفًا وقفـة الحداد، مُطأطئـا رأسي، مُسـلّمًا عليـه قائـلاً:

"السلام عليكَ يا غريبَ الكوفة، السلامُ عليكَ يا سفير الحُسين وثِقَتُهُ، السلام عليكَ أيها المُفضَّلُ من أهل بيته، السلام عليكَ يا من قُتلتَ مظلومًا، السلام عليكَ يا من قُتلتَ عطشانًا، السلام عليكَ يا من كان آخر قوله هو سلامه على الحُسين!، السلام عليكَ يا من رُميت من أعلى القصر، السلام عليكَ يا من جرّوا جثته في الأسواق، السلام عليكَ يا صاحبَ أول رأسٍ حُمل، السلام عليكَ يا صاحب أول جثةٍ صُلِبَت، السلام عليكَ يا من تدمعُ عليه عيون المؤمنين".

وقطع سلامي جواب بني عقيل:

- فما يقول الناس؟ .. إنا تركنا شيخَنا وسيدنا وبني عمومتنا خيرَ الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب معهم بسيف .. لا والله لا نفعل، ولكن تفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا ونقاتل معك حتى نَرِدَ موردك، فقبّحَ الله العيشَ بعدك!.

وإلى هذه اللحظة، لم أسمع بجواب الأنصار، فكأنهم كانوا يقدّمون بني هاشم في كل شيء، ولا يتقدّمون عليهم أبدًا، وبعد جواب بني عقيل قامَ مسلم بن عوسجة وقال:

- أ نحنُ نخلّي عنك؟ .. ولمّا نعذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله حتّى أكسرَ في صدورهم رمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولا أفارقك ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونكَ حتى أموت معك.

لقذفتهم بالحجارة! ..

أحيانًا يقولُ المرء كلماتٍ تعبّر عن حُبٍّ صادق، مختزلاً نوعًا ما شيئًا من المُبالغة، ولكن الأمر لم يكُن كذلك مع ابن عوسجة، علمتُ أنّهُ كانَ صادقًا في مبالغته، ولم يكُن يبالغ، وكانت عينه تقول أنه مستعدٌّ لأكثر من ذلك!.

وقام سعد بن عبدالله الحنفي وقال:

- والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غَيبةَ رسول الله فيك، والله لو علمتُ أني أُقتل ثم أُحيا، ثم أُحْرَقُ حيًّا، ثم أُذَرُّ، ويفعل ذلك بي سبعين مرّة ما فارقتك! .. فكيفَ لا أفعل ذلك وإنما هي قتلةٌ واحدة ..

كنتُ أظنُّ أنّي أستطيع أن أكونَ بين هؤلاء الأنصار، كنت أعتقد أني سأنصرُ حبيبي معهم، ولكنّي شعرتُ أني

"واهم" وأنا أسمعهم كيفَ يخاطبون سيّدهم، ومدى استعدادهم لتقديم أرواحهم، ليس مرّةً واحدة، بل سبعين مرة!، لأنّي شعرتُ بأن فعلي سيكون أقلَّ من قولي، أما مع الأصحاب فقد كان العكس تمامًا!، كنتُ متيقّنًا بأن فعلهم سيكون أعظم من قولهم إن أُتيحَت لهم الفرصة ولم تكُن مجرد أحاسيس يعبّرون عنها بكلامهم!

وقام زهير بن القين وقال:

- والله لوددت أني قُتلتُ ثم نُشرتُ ثم قُتلتُ حتى أُقتل كذا ألف قتلةٍ، وأن اللهَ يدفعُ بذلك القتلَ عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

كنتُ مفتخرًا باعتقادي بأن روحي رخيصةٌ جدًّا أمامَ إمامي الحُسين عليه السلام، وسعيدًا باستعدادي على بيعها لأجله بأرخص الأثمان، ولكن بعدما سمعتُ كلامَ زهير، عرفتُ كم أنا ضعيف، ولا أستحق نُصرةَ حبيبي، فهو لم يُرخص روحه لسيده الحُسين عليه السلام، ولم يبعها بسعرٍ زهيد، بل كان يعتبرها "لا شيء"، وكانَ يرميها تحت رجليّ حبيبه دون تقدير ثمنها، فلا قيمةَ لها أمامَ الحُسين عليه

السـلام!.

وأكمـل الأنصـار أجوبتهـم وكلٌّ يعـبّر عـن اسـتعداده بطريقته، ويترجم عشـقه بأسـلوبه الخـاص، وأنا أسـتمع إليهم، مُطأطِئًـا رأسي، خجـلاً مـن نفـسي، كيـفَ أتجـرّأ عـلى الوقـوف بينهـم؟، فعـلاً لا أصحـاب خـير مـن أصحابك يـا أبـا عبدالله، ولكنّـي عـلى الرّغـم مـن ضعفـي وخجـلي مـن نفـسي، إلا أنّي سـأبقى!، وسـأنصركَ وإن كنتُ لا أملكُ إلا القليـل من المعرفة، لـن أتـركك يا حبيبـي وأُقاتـل بهـذا القليـل فاقبلْهُ أرجـوك، فلا يهمّنـي إن كنـتُ أسـتحق ذلـك أم لا، المهـم هـو أن أكـونَ معكَ نـاصرًا ولـو صغيرًا.

١٦

صاح رجلٌ وخاطب محمد بن بشر الحضرمي قائلاً:

- قد أُسِرَ ابنكَ.!

هُنا ذكرتُ ابني وثمرة فؤادي الذي كنتُ قد نسيته تمامًا وأنا أرى إمامي وهو محاصَرٌ من قِبلِ الأعداء، وتساؤلتُ ماذا كنتُ سأصنعَ وأنا في موقف الحضرمي؟، لو أُسِرَ ابني، وأنا في مُعسكر إمامي، هل أُفكّر فيه؟، هل أُفكّر في إنقاذه؟، هل سأحاول؟.

الكلام سهلٌ جدًّا، فغالبًا سأُجيب بِنعم!، ولكنّي كلّما تذكّرتُ ابتسامة ابني وهو بينَ يدي، أو استقباله لي فورَ عودتي إلى المنزل، راكضًا مهرولاً مُناديًّا بشوق: "بابا"، فأحضنه بشوق الأبوّة، ويقبّلني قُبلة الاحتياج، أشعرُ بتذبذبٍ في قلبي، وأنشغل قليلاً في صورة ابني.

هل أتحمّل أن أرى ابني هذا يكبرُ فيُؤسَرُ فأتركه؟، هل سأُضحّي به حقًّا؟، هل فعلاً أستطيع أن أطبّق هذه الكلمة التي أرددها دائمًا: "بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ومالي"؟، هل حقًّا أنا مُستعدٌّ للتضحية بكل شيء لنُصرة خليفة الله في أرضِه؟

وهُنا سمعتُ إجابة الحضرمي التي مُلِئَت غُصّة:

- عند الله أحتسبه ... ما كنتُ أُحبُّ أن يُؤسَرَ وأن أبقى بعده!.

فتدخّل سيدي وحبيبي وإمامي الحُسين عليه السلام فورًا وقال له بنبرةِ التعاطف:

- رحمكَ الله، أنت في حلٍّ من بيعتي، فاعْمَل في فكاك

ابنـك!.

يـا الله!، أعطـاهُ الحُسـين عليـه السـلام الإذن ليذهـب في فـكاك ابنـه، عـلى الرغـم مـن أنـه لا يملـك إلا العـدد القليل من الأنصـار، وكل واحـدٍ منهـم سـيتركُ أثـرًا إن رحـل.

أجاب الحضرمي برجلٍ ثابتة وقلبٍ مُطمئن:

- أكلتني السّباع حيًّا إن فارقتك!.

اسـتحقرتُ نفـسي عندما سـمعتُ هذا الجـواب منه، فلم يفكّـر أبـدًا في ابنـه!، لم يـتردّد لسـانه أبـدًا، غُربـةُ إمامِـه هي كل همّـه، وبقيـتُ مذهـولاً، أُراجـع نفـسي، وأحسـبُ لإيـماني ألفَ حسـاب!.

١٧

- يـا قـوم إني غـدًا أُقتـل، وتُقتلـون كلّكم معـي ولا يبقى منكـم واحـد!

أعلـنَ إمامي هذا الإعـلان المهم، الكلّ سـيُقتل، لن يبقى مِنَّـا باقية، لن ينجو أي أحد، لا مهـرب بعد الآن، فها هو الضمان بالمـوت مـن فمِ المعصـومِ مبـاشرةً، تصفّحتُ وجـوه الذين كانوا في المقدّمـة، ولمَ أرَ إلا الثبـات والإصرار عـلى الشـهادة، والرغبة في معانقـة المـوت على حُـب هذا الإمـام الحَبيـب، وقالوا:

- الحمدلله الذي أكرمنا بنصركَ وشرَّفَنا بالقتلِ معك، أولا ترضى أن نكونَ في درجتك يا ابن رسول الله؟

فجزاهم إمامي خيرًا ودعا لهم، وقاطعهم صوتٌ بريء، صوتُ يافع، لصبيّ لم يبلغِ الحُلُم بعد

- وأنا فيمن أُقتل؟

خفقَ قلبي لصوته، ولم يكُن سؤالهُ سؤال الخائف من أنه سيكون من المقتولين، بل صوتُ الذي يتمنى ويرجو أن يُحسب معهم، حاولتُ النظر إلى وجهه، ولكن .. أبَت عيني ذلك، فعلمتُ أنه من أهل بيتٍ **أذهب الله عنهم الرّجس وطهّرهم تطهيرًا**، ولم أُحاول حتى مقاومة إرادة عيني، فأجابه الحُسين عليه السلام:

- بُني .. كيف الموتُ عندك؟

الله الله .. صبيٌّ لم يبلغِ الحُلم وهكذا يكون سؤال الحُسين عليه السلام له؟، سؤالٌ قد لا يجرأ الكبار على الإجابة عليه، سؤاله يخافه كثيرٌ من الأبطال، ففي المعركة لا يحتمل البطل أنه سينجو إذا كانت الموازين في صالحه، ولكن هُنا الوضع

مختلف تمامًا، فقبل قليل أعطانا الإمام ضمانًا بأنه لن يبقى أحد!، والكل سيُقتل، ناهيك عن الحصار وفرق العدد بين المُعسكرين الذي يدل على الخسارة في المعركة، فهذا الصبي كان يعلمُ أنه سيكون من المقتولين لا محالة، وكان جوابه:

- يا عم .. "فيك" أحلى من العسل!

يا عم؟، نعم .. إنه هو حتمًا، إنه هو .. القاسم بن الحَسن عليهم السلام، ثمرة فؤاد الإمام المجتبى، ما إن عرفتُه إلا و وجّهتُ وجهي مباشرةً نحوَ المدينة وهمستُ بدموعٍ جارية: **"صلى الله عليكَ يا كريمَ أهل البيت، صلى الله عليكَ أيها المظلوم، صلى الله عليكَ يا معز المؤمنين ومذل الكافرين، صلى الله عليكِ يا من رموا جنازتك بالسهام وحرموك من أن تُدفن عند قبرِ جدّك .. لقد ورثَ ابنك القاسم منكَ شجاعتك يا مولاي، و ورثَ منكَ حُبّكَ لأخيك، فها هو لا يكترث بالموت ويرى طعمه كالعسل لأنه في الحسين عليه السلام".**

أسعد جواب القاسم بن الحسن عليه السلام قلبَ عمّه الحُسين وأبكاه في الوقت نفسه، فأجابه وكلّه غُصّة:

- إي والله فداك عمّك، إنّك لأحد من يُقتل من الرجال

معـي، بعـد أن تبلـوَ ببـلاءٍ عظيـم ... ويُقتـلُ ابنـي عبدالله

تسـارعت نبضـاتُ قلبـي عندمـا سـمعتُ إمامـي يقول: "ابنـي عبـدالله"، وتراجفـت أعضائـي وأجـاب القاسـم:

- يـا عـم، ويصلـون إلى النسـاء حتّـى يُقتل عبـدالله وهو رضيـع؟

لا تُجـب يا سـيدي، أرجـوك لا تقلها، لا تخـبر بالخبر، فلا ذنـبَ للأطفـال، لا ذنبَ للرضعـان، لا ذنب لـلأم المُرضعة!، لا تقلها أرجـوك ...

- فـداك عمّـك، يُقتـل ابنـي عبـدالله إذا جفّـت روحـه عطشًـا، وصرتُ إلى خِيَمِنـا فطلبتُ لـه ماءً ولبنًا، فـلا أجدُ قط!، فأقـول ناولـوني ابنـي لأُشربه مـن فيّ، فيأتـوني بـه، فيضعونه على يـديّ، فأحملـه لأُدنيـه مـن فيّ، فيَرميه فاسـقٌ بسـهم فينحـره وهو يناغـي فيفيـض دمـه في كفي، فأرفعه إلى السـماء وأَقـول: "اللهم صـبرًا واحتسـابًا فيـك"، فتعجلنـي الأسـنّة منهـم والنار تسـعرُ في الخنـدق الـذي في ظهـر المخيم، فأكـرُّ عليهم في أمـرِّ أوقاتٍ في الدنيـا، فيكـون ما يريـدُ الله.

وا مصيبتاه!.

هويـتُ عـلى ركبتـي، ولطمـتُ وجهـي حتـى تخـدّرت وجنتـاي!

١٨

كان البكاء سيّد الموقف، خاصة عندما تطوف الدموع على طفلٍ رضيع عطشان، سيُروى عطشه بسهمٍ في نحره دون رحمة، بين يدي أبيه، فيبقى مهده خاليًا، مثل هذه المصيبة تُنسيك كل المصائب.

قطع البكاء حبيبُ بن مظاهر وبجانبه زهير بن القين، عندما وقفا وأشارا بأيديهما وسألا الحُسين عليه السلام:

- فسيّدنا علي؟

نظرتُ إلى حيث أشارا، فشاهدتُ جسدًا نحيلاً، ظهرًا محنيًّا، يدٌ ترجفُ تحاول أن تسكن على عصاة قد اتّكأَتْ عليها، وعادت عيني إلى عادتها مع رفض النظر إلى وجوه الآل، فعلمتُ أنه سيدي ومولاي عليُ كربلاء علي بن الحُسين عليه السلام، زين العابدين وسيد الساجدين، فعلمتُ أنّهما كانا يقصدان قتله، هل سيكون مع المقتولين في المعركة؟، فاستعبَر إمامي الحُسين عليه السلام وأجابَ:

- ما كان الله ليقطع نسلي من الدنيا، فكيف يصلون إليه وهو أبُ ثمانية أئمة؟!

١٩

عـادَ الحُسـين عليـه السـلام إلى أنصـاره، ثم دعـا لهم مرة أخـرى، وقـال لهـم:

- ارفعوا رؤوسكم وانظروا

فرفعـتُ رأسي ونظـرتُ معهـم، ولم أرَ إلا سـماءً حزينـة كئيبـة، تبكـي مع بـكاء الحُسـين عليـه السـلام، تسـتمع لدعائه، وأحسسـتُ أن سـيدي أرادَ منـا أن نناجـي الله عـز وجـل، وأن ندعـو دعـاء المودّعـين، فشرعـتُ مبـاشرةً في الدعـاء إلى إمامي:

"اللهم اشفِ صدر حبيبي الحُسين عليه السلام وانصره على هؤلاء القوم، وفّقني لنصرته، لطلب الماء لطفله الرضيع، لجلب الأمن إلى عياله ونسائه، للدفاع عن حرمه، ازرقني الشهادة بين يديه، على حُبّه، ولا تسلب مني ما أنا فيه، فها أنا بين يديه، شاهرًا سيفي مجرّدًا قناتي، مُلبّيًا دعوة الداعي في الحاضر والبادي، لا تحرمني طلعته الرشيدة وغرّته الحميدة، كاحلاً ناظري بنظرةٍ مني إليه حتى ولو لم أر وجهه، يا إلهي وسيدي ومولاي ... لا تستبدل هذه النعمة بغيري ..."، قاطعَ صوتُ حبيبي الإمام الحُسين عليه السلام مناجاتي:

- هذا منزلكَ يا فُلان " هذا قصركَ يا فُلان "هذه درجتك يا فلان

وكان كلّما يخاطب أحد أنصاره، أجدهُ يستبشر، وتظهر ملامح الفرح على وجهه، ففهمت أن إمامي يُريهم منازلهم في الجنة، وعلمتُ أني لم أكُن معنيًّا في الحديث، فخفت .. فربّما لن أكون من الشهداء في معسكره، أو ربّما سأتركه وأرحل وأتّخذُ الليلَ جملاً.

لكني لم أكترث لما حصل ولم أنشغل لعدم مشاهدة

منـزلي في الجنـة!، وحتـى ولو كان عنـدي اعتقاد بأني سـأكون في نـار جهنـم، والله .. لـن أتـركَ الحُسـين، وسـأبقى معـه، وأنادي باسـمه وإن كنـتُ في الحجيـم، فبقيـتُ معهـم بينهـم أتحـسّر على عـدم توفيقـي، وأُهيّـئُ نفـسي للشـهادة حتـى ولـو لم تُكتَـب ليَ ا لجنة !

وناجيتـهُ صلـوات الله عليـه في نفـسي قائلاً: **"سـيدي ما أفعـل بالجنـة وأنتُـم جنّتـي أصـلاً؟، يـا حبيبـي وإمامـي رؤيـاك جنّتـي ورضـاك عنـي هـو فـردوسي وقبولكـم إيـاي هـو أمـلي وبُغيتـي"**.

وأكمل سيدي خطابه مع الأنصار:

- أبـشروا بالجنّـة، فـوالله إنـا نمكـثُ مـا شـاء الله بعد ما يجـري علينـا، ثـم يخرجنـا الله وإياكم، حتـى يظهر قائمنـا فينتقم مـن الظالمـين، وأنـا وأنتـم نشـاهدهم في السلاسـل والأغـلال وأنـواع العـذاب!

هـذا تصريـحٌ آخـر عميـقٌ جـدًّا مـن سـيدي ومـولاي الحُسـين عليه السـلام، يُعلنُ بالموعود من السـماء، الذي سـيظهر لينتقـم مـن أعـداء محمـد وآلـه الطيبـين الطاهريـن، ويـصرّحُ

الحُسين بأنه سيعودُ أيضًا!، ليكونَ معه! .. المهدي المُنتظر..، ليشاهد أعداءه وهم مغلّلين بالسلاسل، يعدنا بأنّه سيلحق بزمان القائم!، هو وأنصاره.

- من قائمكم يابن رسول الله؟

شكرتُ في قلبي صاحب هذا السؤال، أرادت أُذني أن تنشغل في الحديث عن هذا القائم، هذا المُنتقِم لآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين، فأجابهُ سيدي:

- السابع من ولد ابني محمد بن علي الباقر، وهو الحجّة ابن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي ابني، وهو الذي يغيب مدّة طويلة، ثم يظهر، ويملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئَت ظُلمًا وجورا.

شعرتُ أن روحي قد تطهّرت لمجرّد الحديث عنه، خصوصًا أن المُتحدّث كان جده الحُسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وشعرتُ بشوقٍ عظيم مُختزلٍ في قلبِ مولاي الحُسين عليه السلام، كأنّه يستحضر الآتي في الحاضر فيلتقي به في هذه اللحظة، أحسستُ أنه أرادَ أن يشاهد قيام ابنه بكامل التفاصيل.

ولكن ...

يـا تُرى كيف سـيكون لقاؤهما؟، وكيف سـيعود الحُسـين أصـلاً؟، ومـا هـي الكلمـة الأولى التـي سـيقولها عندمـا يُلاقـي ولـده المهـدي، وقـرأتُ كثـيرًا أنّه سـينتقم لأمـه فاطمـة الزهراء عليها السـلام، فهل سيشـاهد الحُسين عليه السـلام هذا الانتقام أيضًـا؟، هل سـيدلّنا عـلى قبر أُمّـه فاطمـة المُغيّب؟، هل سـنرى الحُسـين عليـه السـلام مـع ولده المهـدي على قـبر أمّهـما؟، كيفَ سـيبكي أبوعبـدالله عـلى أمـه فاطمـة؟، هل سـيروي لنـا حادثة الهجـوم عـلى دار أمـه؟، هـل سـيلتفت بعـد بكائـه على قـبر أمه ليبحـث عـن شيءٍ آخـر؟، فيمشي ونمـشي خلفه، وإذا بـه يجدُ ما يبحـث عنه، قـبر ليس كباقـي القبـور، حجمه صغـير!، وعندما نسـأله يُجيب: "هـذا قبر أخي المُحسـن السـقط!".

وننصـب مأتمًا على المُحسـن الشـهيد بوجـود المهدي، هل الحُسـين عليه السـلام هـو الوحيد الذي سـيعود؟، أين سـيكون أبـوه أمـير المؤمنـين عليه السـلام؟، هـل يُعقـل أن يعـود أيضًا!، وهـل سـأقفُ في جيـشٍ قائـده عـلي بـن أبي طالـب؟!!، وهـل سـينتقمون ممّـن قتـل المحسـن وقتلَ أمـه؟، إن كانوا سـيرجعون سـيرجع معهم أعداءهـم؟، كيف سـيكون لقاؤهـم بالأعداء؟،

هـل سيُحاكمونهم؟ .. كل هـذه الأسـئلة شـغلتني، و وجـدتُ لسـاني وحده يـردّد:

- اللهـم عجّـل لوليّـكَ الفـرج .. وأخرجنـي مـن قـبري مؤتـزرًا كفنـي شـاهرًا سـيفي ..

٢٠

انتهى إمامي من اختباره لنا، و ظننتُ أنه انتهى من كلمته، لكنّه خفضَ صوته قليلًا، واقتربنا منه، علمتُ أنّ هناك شيئًا مهمًّا أراد أن يبلغنا إياه، ولكن لماذا يخفض صوته؟، فهذا مخيّمه، ويخفّه أنصاره، ولا يوجد دخيلٌ علينا فيه، فتقدّم وقال:

- ألا ومن كانَ في رحلهِ امرأة، فليبعث بها إلى أهله..

عرقَ جبيني، ثقل جسدي، انحنا ظهري، وليس

السببُ هو هذا الطلب من الحُسين عليه السلام، بل لأنه عقّب على هذه الجُملة بصمتٍ غريب يوحي إلى أن هناكَ تكملةً لكلامه، كأنه لا يريد إنهاء جملته، إلا أنه مضطرٌّ لذلك، وكنتُ خائفًا من تتمة كلامه .. تمنّيتُ أن لا يُكمل!، ولكن...

- إن نسائي تُسبى، وأخافُ على نسائكم السبي!.

يا حُسين!...

كنتُ أتمنّى أني لم أسمع هذه الكلمة، نعم، إني لا أرى وجهك، فعيناي لا تتجرؤ على النظر مباشرةً إلى وجهك، لكني شعرتُ بحُرقة قلبك من أنفاسكِ المتقطّعة وأنتَ تقول هذا الخبر!، ساعدَ الله قلبكَ يا حَبيبي، نساؤك .. يُسبَون؟، زينب؟، أم كلثوم؟، سكينة؟، رقية؟، ليلى؟، رملة؟، الرباب؟، هل حقًّا تقصدهم؟، ألهذا خفضتَ صوتك؟، لم تُرد أن يسمعَ النّساء هذا الخبر؟.

آه ... آه... آه، على ماذا أبكي؟، على نسائك وما سيحلّ بهن؟، وهنَّ نساء رسول الله صلى الله عليه وآله، نساء أمير المؤمنين عليه السلام، أم على حالكَ وانكسار قلبكِ عليهن؟، أم أبكي على خوفك على نساء أنصارك؟، وطلبك أن يرجعوا

إلى أهلهـن ويتركوا نسـاءك!.

بكـى الأنصـار وبكيـتُ معهـم، فقـام مـن بينهـم علي بن مظاهـر الأسـدي، وذهـبَ إلى خيمتـه، وبعـدَ أن عادَ لنـا جلسَ عنـدَ الحُسـين عليـه السـلام وكان بجانبه قمـر العشـيرة العباس عليـه السـلام وحكـى مـا جـرى في تلـكَ الخيمة.

قـال أنه دخلَ خيمتـه واسـتقبَلَتْهُ زوجته المؤمنة بابتسـامةٍ في وجهـه، وكان هـذا الموقـف وحـده يدعـو إلى التأمّـل، كيـفَ لامـرأةٍ في ليلـة الحرب التبسُّـم في وجـه زوجها؟، إن هـذا الأمر يـدل عـلى شيء فهـو يـدلُّ عـلى صلابـة إيمانهـا، وقـوة يقينهـا في الحُسـين عليـه السـلام، فأجـابَ زوجهـا عـلي بـن مظاهـر ابتسـامتها:

- دعينـا والتبسّـم!، قومـي والحقـي ببنـي عمّـك من بني أسـد

لم يحتمـل هـذا الرجل المؤمـن الغيور فكرة سـبي زوجته، وأراد أن ينقذهـا ويُلحقهـا فـورًا بركـبِ بنـي أسـد، فتعجّبَـت هـذه الحُـرة المؤمنـة منـه وقالـت:

- لِمَ يا ابن مظاهر؟، هل فعلتُ معكَ مكروهًا؟

فأجابها بانكسار:

- حاشا لله، ولكن أما سمعتِ غريب رسول الله صلى الله عليه وآله، خَطَبَنا في هذه الساعة؟

غريب رسول الله؟، عندما سمعته يقول هذه الكلمة وهو يحكي للحُسين عليه السلام ما جرى بينه وبين زوجته انكسرتُ انكسارًا مختلفًا جديدًا، ما يجري أَمامي غير اعتيادي أبدًا، حُزني أصبح يتجدّدُ في كل موقفٍ جديدٍ أراه، وهذا ما كانَ يحصل في كل سنةٍ في محرم، حُزني يتجدّدُ دون أن أرى أي شيء، فكيف الآن؟، وأنا أرى وأسمع!، أبكي على مشاهدَ لم أفكّر فيها من قبل، أبكي على كلماتٍ لم أبكِ عليها من قبل، أنكسرُ في مشاهدٍ كنتُ أعرفها ولكنّها لم تكُن تبكيني، ولكنها الآن تبدو كأنها مختلفة تمامًا ولم أكُن أفهمها!، وهذا ما حصلَ لي عندما سمعتُ كلمة **"غريب رسول الله"**، فكلمة غريبٍ وحدها كانت تقطّعني!، فكيفَ إن كانَ هذا الغريبُ غريبَ رسول الله!، غريب نبي الأمة، هل يُعقل أن يكون آخر أسباطِ النبي الأكرم غريبًا في أمةِ جدّه؟، وا مصيبتاه، صلى الله

عليكَ يا وارث محمّد المصطفى.

أجابت الحُرة زوجها:

- بلى، ولكن... سمعتُ في آخر الخطبة همهمة لا أعرفها.

هُنا تيقّنت أن السبب الذي جعل الحُسين عليه السلام يخفض صوته كان أن لا يسمع منه النساء هذا الخبر، فهنّ لم يسمعن بخبر السبي بعد!، وكيفَ لامرأةٍ أن تتحمل مثل هذا الخبر؟، كيفَ لمن عاشَت عزيزة مدلّلة في بيتِ زوجها، أن ترضى بأن تكون سبيةً بين الرجال الأجانب!، وفي هذه اللحظة .. بكى علي بن مظاهر .. وأكمل لنا جوابَ زوجته:

- ما أنصفتني يابن مظاهر...!

لماذا؟، .. ما هذا الرد الغريب!؟ .. ما الذي تريده هذه الحُرّة؟

- أيسّرك أن زينب عليها السلام يُسلبَ إزارها وأنا أتزيّن بإزاري؟ .. أم يسرّكَ أن سكينة تُسلب قرطيها وأنا أتزيّن بقرطي؟! .. لا كان ذلك أبدًا، بل أنتُم تواسون الرجال

ونحـن نـواسي النسـاء!.

إن مـن يظـنّ أن أنصار الحُسـين عليه السـلام هـم رجال فقـط فهـو مخطـئ، إن مـن يعتقـد أن مـن سـجّل موقفًـا وقـدّم نفسـه فـداءً للحُسـين عليـه السـلام في عاشـوراء هـم الرجـال فقـط فهـو مخطـئ!، فهـذه الحُـرة سـجّلت لهـا موقفًـا مـع زينب عليهـا السـلام لـن يُنسـى مـا بقـيَ الدّهـر!، لم تـرضَ بـأن تعودَ مـع أهلهـا، لم تـرضَ بـأن تكـونَ عزيـزة!، لم تـرضَ بـأن تـتركَ بنات الحُسـين عليه السـلام، لم ترضَ بـأن تبقى حُـرة!، اختارَت السّـبي؟!، أي قلـبٍ هـذا؟، أي تعلّـقٍ بزينبَ هـذا!، هل ترضى بـأن تكونَ أسـيرة؟، هـل حقًّا يُعقـلُ ذلك؟، بـدأتُ أبكـي بكاءً جديـدًا، بـكاء المذهـول!.

وجّه علي بن مظاهر كلمته الأخيرة إلى الحُسين فقال:

- أبتِ الأسديّة أن تفارقكم!.

لم يمنـع زوجتـه مـن نُـصرة زينـب، لم يمنـع زوجتـه مـن البـكاء مع زينـب، لم يمنع زوجته مـن التضحية بنفسـها لزينب، بـل ذهـبَ إلى مـولاه وهو يبكـي افتخـارًا بموقفِ امرأتـه الحُرّة، فأجابـه إمامي:

- جزاكم الله خير الجزاء.

وهـذه الكلمـة لوحدهـا مـن فـمِ الحُسـين عليـه السـلام هـي أعظـم جـزاءٍ عـلى الإطـلاق!.

٢١

تفـرّق بعـض الجمـع، بـينَ قاعـدٍ وراكـعٍ وسـاجد، لهـم دويٌّ كـدويِّ النّحـل، تمـرّ بـين الخيـام فـلا تسـمعُ إلا أصواتًـا تُناجـي الله عـز وجـل، إلا العبّـاس عليـه السـلام.

رأيتـهُ راكبًـا جـواده، مُتقلّدًا سـيفه، حاملاً رمحـهُ، يطوف حـول خيـامٍ مُحـدّدة، كانـت خيـام الهاشـميات!، أراد أن يدفـع عنهـم الوحشـة في ليلـة الـوداع، يغرقهـم في أمانـه، يُحيطهـم بحنانـه.

أمـا حبيبُ بـن مظاهر فقـد رأيتـهُ يمـزح!، وتعجبّتُ من هـذا الفعـل، واسـتنكرَ عليـه أحـد الأنصـار فأجـاب:

- فأيُّ موضعٍ أحقُّ من هذا بالسّرور!...

تبخّـر تعجّبـي بعـد كلمتـه هـذه، فعـلاً .. أي موضـعٍ سرور مثـل هـذا؟، في خدمـة إمـامِ زمانـه وهـو راضٍ عنـه، بعدَ أن شـاهدَ منزلتـه في الجنـة بعينيـه، مدافعًـا عـن حرم رسـول الله صـلى الله عليه وآلـه، فتذكّرتُ التوفيـق الذي لم أكُـن مُلتفتًا إليه، أنـا الآن بـين يـدي إمامي، وأمـلي هو أن أُقتَـل بين يديـه، وأُقطّع عـلى حُبّـه، فالحمـدلله عـلى عظيـمِ رزيّتي.

بعد موقف حَبيب، اشـتقتُ إلى سـيدي ومولاي الحُسـين عليـه السـلام، وأردتُ أن أشـبعَ عيني من مشـاهدته، ولم أسـأل عـن مكانـه، بل اسـتخدمتُ بوصلة قلبـي وكنتُ على يقـينٍ بأنها لـن تخيّبنـي، خطوتُ خطـواتٍ ملؤها شـغفٌ وشـوق، وفي هذه المرّة .. ابتسـمت، رأيتـهُ واقفًا من بعيد، تسـارعت نبضات قلبي مـن جديـد، نعم، لم يتعـوّد قلبي أبدًا عـلى وجوده، ففـي كل مرّة أخطـو إليه أشـعر بأنها المـرّة الأولى التي سـألتقي بـه، في كل مرّةٍ أراهُ فيهـا، أشـعر أن حُبّي يتجـدد، أُحبّه إلى حـد الجنون!، أحب

صوتـه، أحـب كلامه، أحـب منطقه.

اقتربـتُ منـه، وفي هـذه المـرّة كان هنـاك شيءٌ غريـب!، كان ينظـر إليّ!، فجسـده كان موجّهًـا إلي كأنـه يسـتقبلني، ينتظر وصـولي!، فجمـدت رجـلي!، وإذا بي أسـمعُه يقـول:

- **أحمد..؟**

إمامـي .. يُناديني؟، إنه ينادي باسـمي، أنـا متأكّدٌ أنه يقصدني أنـا!، المشـكلة هـي أني لا أتجـرأ على رؤيـةِ وجهه، ترفـض عيني ذلـك!، فأكمل وقال:

- **ارفع رأسك..**

هل هـذا هـو الإذن؟، أخـيرًا!، الإذن لرؤية جمـال وجهه المحمـدي العلـوي الفاطمـي، وأخـيرًا أذنَ لي سـيدي ومولاي.

رفعـتُ رأسي قليـلاً.. ونظـرتُ إلى كفّـه المباركـة!، وأكملَـت عينـاي ارتفاعهـا.. فرأيـتُ نـورًا يغـشي الأبصـار!، جـبرني على إغـماض عيني!، فسـمعتُ أصـواتَ بـكاءٍ ونحيب، وصرخـاتٍ تعلـو شـيئًا فشـيئًا..

٢٢

فتحتُ عيني!، فرأيتُ الخطيب على المنبر، حاسرَ الرأس، والمُعزّين حولي يلطمون صدورهم و وجوهم، والمجلس في ضجيجٍ وعجيج، فأعادَ كلمته الثالثة:

- يا ليتنا كُنا معكم سادتي .. فنفوزَ فوزًا عظيمًا

لم أكُن في كربلاء!، لم أكُن في ليلة العاشر، بلى بلى..!، كنتُ هناك، روحي كانت هناك، جسدي كان هناك، كان سيفي معي!.

نعـم، قُتِلـتُ هنـاك!، حتّى ولو عُـدت قبـل أن أدخل إلى سـاحة القتـال، قُتلـت في ذلك المـكان!، قُتلـتُ في ذلـك اليوم!، وأُقتَـلُ في كل سـنة، في عاشـوراء الحُسـين عليـه السـلام، فيومه وأرضـه محفـوران في وجـودي وكيـاني، وفي نفس اليـوم لا أُقتلُ مـرّة واحـدة، بـل ألـف مـرة!، فـإن يـوم الحُسـين عليه السـلام أقـرحَ جفوننـا وأذلَّ عزيزنـا.

نعـم، كنـتُ مـع الحُسـين عليـه السـلام، وسـأكون معـه مـا أبقـاني الله عـز وجـل، وإن مُـتُّ رجـوتُ الله أن يخرجنـي الله مـن قـبري مؤتـزرًا كفنـي شـاهرًا سـيفي مقاتـلاً بين يـدي ولده المهـدي عجـل الله تعـالى فرجـه.

نعـم، كنـتُ مـع الحُسـين عليـه السـلام، وفـؤادي يهوي إليـه، وسـأبقى الصرخـة التـي تكـونُ لهـم، سـأبقى الجمـرة المُحترقـة التـي لاتنطفئ!، وتـزداد حرارةً في كل سـنة، بل في كل يـوم.

نعم، كنتُ مع الحُسين، وسأبقى معه!.

فهـل من معـينٍ فأُطيـل معـه العويـل والبُـكاء؟، هل من جـزوعٍ فأُسـاعدَ جزعـه إذا خـلا؟، هـل قذيَـت عينٌ فسـاعدتها

عينـي عـلى القـذى؟

فعـلى الأطائب مـن أهل بيت محمد وعلي صـلى الله عليهما وآلهـما، فلْيبـكِ الباكـون، وإياهـم فلينـدبِ النادبـون، ولمثلهـم فلتـذرف الدمـوع، وليـصرخ الصارخـون، ويضـج الضاجون، ويعـج العاجـون!

قبضـتُ عـلى قميصي وأنـا أبكـي، شـققتهُ بكل قـوة وأنا أنـدب:

- واحسيناه.. وا إماماه.. وا غريباه

وجّهـتُ وجهـي إلى كربـلاء وأنـا في تلـكَ الحالـة وقلتُ ببكائـي:

- فَلَئِـنْ أخَّرَتْنـي الدُّهُـورُ، وَعَاقَنِـي عَنْ نَـصْرِكَ المَقْدُورُ، وَلَمْ أكُـنْ لِمَـنْ حَارَبَـكَ مُحَارِبـاً، وَلِمَنْ نَصَبَ لَـكَ العَـدَاوَةَ مُناصِباً، فَلأنْدُبَنَّـكَ صَبَاحـاً وَمَسَـاءً، وَلأبْكِـيَنَّ علَيـكَ بَدَل الدُّمُـوعِ دَماً، حَـسْرَةً عَلَيـكَ، وتَأسُّـفاً عَـلى مَـا دَهَـاكَ وَتَلَهُّفـاً، حَتَّـى أمُـوتُ بِلَوعَـةِ المُصَـابِ، وَغُصَّـةِ الِاكْتِئَـابِ... وإنْ كانَ لَمْ يُجِبْـكَ بَـدَني عِنْـدَ اسْـتِغاثَتِكَ وَلِسـاني عِنْـدَ اسْـتِنْصارِكَ، فَقَـدْ اَجابَـكَ قَلْبـي

وَسَـمْعي وَبَـصَرَي.

- لَبَّيكَ داعِيَ الله..!

وجّهـتُ وجهـي إلى السـماء ورفعـتُ يـدي إلى فاطـرِ السـماواتِ والأرض، وخاطبـتُ الله عـزَّ وجـلّ:

- اللهـم عجّل لوليّك الفرج، وارزقنـي نُصرته، و وفّقني لخدمتـه، واكتبنـي مـن الآخذين بثـأر جـدّه معه، والمستشـهدين بـين يديه عـلى حُـب الحُسـين عليه السـلام.

يـا بـن شـبيب!..إن سرّك أن يكون لك مـن الثـواب مثلُ ما لمـن استشـهد مع الحسـين؛ فقل متـى ما ذكرتـه: يـا ليتني كنت معهـم؛ فأفوز فـوزا عظيما.

الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام

تمّت
أحمد صدِّيق
في ليلة الجُمعة
١٤ ذو القعدة ١٤٤٠هـ
الموافق ١٨ يوليو ٢٠١٩